كشف المستور النفسي

في

التنويم المغناطيسي
تفسير الأحلام
الجرائم النفسية

د.أحمد فتحي
أستاذ علم النفس الجنائي

تقديم

د. محمد حسام الدين

الكتاب : كشف المستور النفسي

الكاتب: د.أحمد فتحي

تقديم: د. محمد حسام الدين

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية



هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

فتحي ، د.أحمد

كشف المستور النفسي / د.أحمد فتحي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٨٤ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٧٥٥ – ٤٤٦ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٤٦٥ / ٢٠١٨

كشف المستور النفسي





تقديم

تحيّر العلماء في الوصول إلى تفسير علمي للكثير من الأمور والظواهر التي تمس النفس الانسانية ، ومن هذه الأمور ظاهرة الأحلام، وظهرت آراء مختلفة للناس فمنهم من يقول أنها عبارة عن رسالات غيبية يتم إرسالها إلى الشخص عن طريق الملائكة أو الشياطين، والبعض الآخر من علماء النفس يُرجّح أن الأحلام ما هي إلا رغبات بداخل الشخص يتم التفريغ عنها، أما علماء الفسيولوجي فقد قالوا أنها تنتج من الاستجابة الفسيولوجية لأعضاء جسم الإنسان عندما يتأثر بالمؤثرات الخارجية، وكان هذا الاستنتاج اعتماداً على تجاربهم العلمية.

في كل يوم يصل العلماء إلى اكتشاف جديد بشأن الأحلام، فهو عالم مجهول والوصول إلى جميع أسراره أمر صعب، وقد كشفوا عن بعض الحقائق التي عرفوها عن الأحلام ومنها : .

١ . لا يوجد شخص لا يحلم : الجميع يحلمون ويُستثنى فقط المصابون باضطرابات نفسية وعقلية، أما الشخص الطبيعي فدائماً يحلم ولكن الأغلب لا يتذكر تلك الأحلام.

٢ . نسيان الحلم عند الاستيقاظ: عند استيقاظ الإنسان من النوم وبعد مرور خمس دقائق، ينسى حوالي ٥٠ % من الحلم، وعند مرور ٥

دقائق أخرى تصل النسبة إلى ٩٠ %، وهذا يفسّر سبب نسيان الشخص لأجزاء كثيرة من الحلم كان يتذكرها لحظة استيقاظه.

٣ . جميع من نراهم في الحلم رأيناهم في الحقيقة: لا يمكن للإنسان أن يحلم بأشخاص لم يرهم من قبل، بل إن العقل البشري يقوم بتخزين وجوه جميع الأشخاص الذين نراهم في يومنا سواء نعرفهم أم لا فيظهر بعضٍ منهم في أحلامنا.

٣ . ألوان الأحلام: أغلب الأشخاص تكون أحلامهم بالأبيض والأسود، بينما قلة قليلة من الناس قد يصلوا إلى ١٥ % هم من يحلمون بالألوان.

٤ . التخلص من الكوابيس: إذا كان الشخص يُعاني من الكوابيس، فيمكنه الحد منها من خلال التحدث إلى شخص آخر قبل النوم، فهذا من شأنه أن يجعل تلك الأحلام تخرج من عقله الباطن.

٥ . حالة الجسم عند الحلم: عندما يحلم الشخص يكون جسده في حالة شلل شبه مُؤقت، وهي تُعرف باسم مرحلة الارتخاء النومي حيث يقوم بها الدماغ ليحمي الجسم فلا يتحرك أثناء الحلم ولا يُؤثر على المحيط الخارجي.

٦ . شكل الأحلام: غالباً ما تتخذ الأحلام شكل مُبهم وغامض في عرض الأشياء، فلا تُظهرها بصورتها الواضحة، بل يكون كل ما فيها دلالات لها معنى أكبر وأشمل من شكلها الظاهر.

٧ . الإنسان لا يتذكّر جميع أحلامه: يحلم الشخص بالكثير من الأحلام المتداخلة، ولكنه عندما يستيقظ ففي الغالب لا يتذكر سوى حلمه الأخير فقط.

٨ . تأثير الأحلام على حالة الفرد: في الكثير من الأحيان تستطيع الأحلام وضع الشخص عند استيقاظه بنفس الحالة التي كان عليها في الحلم، بمعنى إذا كان آخر ما يحلم به هو قيامه بالأكل فإنه سيستيقظ شاعراً بالجوع.

٩ . تأثير العوامل النفسية والجسدية على الأحلام: معظم الأحلام تُعبّر عن الطاقات السلبية المكبوتة داخل الإنسان أو الرغبات الدفينة التي يصعب عليه تحقيقها، أو تكون استجابة لحاجات الجسم الفسيولوجية فتخرج على هيئة أحلام يشكّلها عقله الباطن، كما أن هناك الكثير من الأحداث في الأحلام تكون مأخوذة من الذكريات التي تحتفظ بها الذاكرة الرئيسية.

١٠ . أحلام العميان: لا تقتصر الأحلام على المبصرين فقط، حيث يستطيع فاقدي البصر أن يحلموا تماماً مثل الأشخاص العادية وتكون أحلامهم أكثر تعقيداً.

١١ . تختلف أحلام الرجال عن أحلام النساء: غالباً ما تكون أحلام الرجال مليئة بالعنف كما أن يظهر في أحلامهم الرجال أكثر من النساء على عكس أحلام النساء التي تكون هادئة أكثر وتستمر بشكل أطول كما أن الشخصيات بها تكون متنوعة ما بين الجنسين.

١٢ . أحلام الحيوانات: توصّل العلماء أن الحيوانات أيضاً تحلم مثل البشر، وذلك أثناء قيامهم بتجربة على غوريلا، حيث قاموا بتدريبها على لغة الإشارة، ثم تركوها لتنام بعد ذلك لاحظوا أنها تُصدر بعض الإشارات التي تدل على أنها تحلم.

١٣ . وجود مواضيع متكررة بين أحلام البشر: لاحظ العلماء أنه هناك بعض الأحلام التي يُمكن أن يحلم بها أكثر من شخص على الرغم من اختلاف ثقافتهم، ومن هذه الأحلام مثلاً السقوط من المرتفعات، التعرض للهجوم والمطاردة من قبل شخص أو شيء ما، عدم القدرة على التحرّك، الذهاب إلى المدرسة أو اجتياز الاختبارات، والطيران.

١٤ . الإلهام قد يأتي من الأحلام: هناك بعض الأحلام التي قد توحي للشخص بفكرة ما أو اختراع ما، وهذا ما حدث مع "جراهام بل"

الذي كان يقوم بتسجيل أحلامه والاستفادة بما يراه من إلهامات في اختراعاته.

ما سبق كان عن النوم ، وما يحدث فيه وهناك اضطرابات نفسية تحدث أثناء النوم وأثناء الاستيقاظ؛ كما تتواجد الأمراض النفسية في كل مكان تقريباً من العالم، وتختلف نسب الإصابة بها بشكل كبير من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر كذلك وتؤثر المشكلات النفسية في حياة الأفراد بشكل كبير حيث تؤدي لظهور العديد من الأعراض السلوكية التي تُسبب الأذى للمريض والمحيطين به على حد سواء، وتتعدد أسباب الإصابة بالأمراض النفسية.. ومن أبرز الأسباب الظروف المعيشية الصعبة والتحديات المتنوعة التي تواجه العديد من الأفراد في الحياة اليومية وتؤدي لتعرضهم للإصابة بالكثير من الأمراض والاضطرابات النفسية المتنوعة، والتي تتسم بالعديد من الأعراض التي تظهر بشكل واضح على المريض، ومنها تدهور الحالة الحياتية للمريض، وعدم قدرته على التفاعل بشكل إيجابي مع الآخرين.. وأحياناً تظهر أعراض فقدان الثقة بالنفس أو في الآخرين وعدم الرغبة في العمل أو الحياة، وقد تظهر بعض الأعراض الجسدية كذلك على المريض النفسي ومنها الشعور بالصداع والآلام المتفرقة في أنحاء الجسم وغيرها من الأعراض المرضية التي ليس لها سبب عضوي واضح أو حقيقي

تمثل مشكلات اضطراب الشخصية سببا من أكبر أسباب اندفاع بعض المرضى نحو ارتكاب الجرائم حيث توجد بعض اضطرابات

الشخصية التي تؤدي بصاحبها ليكون لديه عدوانية نحو المجتمع أو نحو الآخرين وتميل بعض الشخصيات المضطربة لكسر القواعد والأعراف الاجتماعية، ولا يقتصر مفهوم الجريمة للمريض النفسي على قيامه بإيذاء الغير فقط بل يُمكن أن يوجه الأذى نحو نفسه كذلك، وترتبط العديد من العوامل بالجريمة والمرض النفسي.. ومن بين تلك العوامل تعرض المريض لخبرات حياتية سلبية في مرحلة ما من مراحل العمر بشكل خاص الطفولة والمراهقة ويُسهم نقص الذكاء بدور كذلك في تعرض الشخص للإصابة بالمرض النفسي بالإضافة للإدمان المبكر على المخدرات وغيرها من صور الاضطرابات النفسية.

كما تجدر الإشارة إلى أن الدراسات أثبتت أن نسب مُرتكبي الجرائم من المرضى النفسيين لا تزيد بشكل كبير عن مرتكبي الجرائم من الأسوياء، وبشكل عام يقوم الباحثون المُتخصصون في الطب النفسي بمحاولة البحث عن الأسباب التي يمكن أن تؤدي بالمرضى النفسيين لارتكاب الجرائم ومحاولة الربط بين العنف والجريمة بشكل عام والإصابة بالأمراض النفسية المتنوعة ومدى قدرة المريض على التحكم في نفسه وإدارة تصرفاته ويقوم الطبيب المعالج النفسي بملاحظة سلوكيات المريض وطريقته في الحوار والتحدث ويقوم بتسجيل الملاحظات التي تُنبئ عن درجة من الخطورة لدى المريض، ويقوم بمحاولة التعرف على ما يدور بنفس ذلك المريض وتقديم التوصيات اللازمة نحوه.. كما يقوم بتهدئة المريض ومحاولة بث الطمأنينة في نفسه

وتقديم المساعدة اللازمة له بالإضافة للتعرف على أفكاره واتجاهاته نحو الآخرين وبشكل عام فإن المرض النفسي لا يعفي صاحبه من العقوبات القانونية على الجرائم التي ارتكبها حيث تتم إدانة النسبة العظمى من المجرمين ذوي المرض النفسي والذين لا يثبت إصابتهم بخلل عقلي حقيقي يمكن أن يكون سبب في إعفائهم من العقاب، وبالتالي فمهمة إثبات الحالة النفسية والعقلية للمريض تعتمد على مجهود الطبيب المختص بشكل كامل.. وفي حال إثبات عدم مسؤولية المريض النفسي عن الجريمة التي قام بارتكابها فإنه يتم احتجازه للعلاج في مؤسسات متخصصة بالعلاج النفسي حتى يتم عزله عن المجتمع بالإضافة لضمان حصوله على المساعدة اللازمة.

وهناك أيضاً التنويم المغناطيسي الذي يُعرف على أنه حالةٌ من الهُدوء والاسترخاء تحدث في جسم الإنسان عن طريق ترديد لفظٍ مُعيّن أكثر من مرّة، أو عرض صورةٍ ما بشكلٍ مُتكرر على المريض، ويتمّ ذلك بمُساعَدة المُعالِج بحيث يُصبح الشخص المُنوَّم مغناطيسياً أكثر تلبية وطاعة للاقتراحات والإلهامات. ويُشار إلى أنّه من الطبيعيّ أن لا يُنوّم شخصٌ لا يُريد النّوم؛ حيثُ يُمكن أن يتأثّر بعض الأشخاص بالتنويم المغناطيسي بسهولةٍ بعكس بعض الأشخاص الآخرين، ومن الأشخاص الذين لا يُؤثّر فيهم التّنويم المغناطيسي: الأشخاص الذين تحت التخدير. الأطفال دون عمر السادسة. الأشخاص الذين تُصرف لهم أدوية للنوم.

نجحَ التنويم المغناطيسي في علاج عدّة أمراض أبرزها: علاج مرض الوزن الزائد. التقليل من الآلام المُتعلّقة بالسرطان، ومشاكل المفاصل والصداع. علاج الآلام الناتجة عن الأمراض المزمنة. علاج حبسة الكلام. علاج أو مُساعدة المرضى المُدمنين على الإقلاع عن عادةٍ أو مرض غير مُحبّذ مثل المُخدرات، والنيكوتين، والكُحول. التقليل من الآلام المُترتّبة على العمليات الطبيّة في مجال طب الأسنان. علاج الحكّة. تم استعماله كمُخدّر في العمليّات الجراحيّة خلال القرن الماضي، ولكن بسبب اختراع العقاقير لم يعد يُستخدم في عصرنا الحالي. علاج بعض السلوكيات غير المرغوب بها، كالأرق والتبول اللا إرادي.

يتمّ تنويم الشخص مغناطيسياً بعد تأهُّبِه لذلك من قبل الشخص المُتخصّص عن طَريق إدخاله في حالة من الهدوء العَميق والاسترخاء، ويتمّ الاسترِخاء العميق عن طريق خطوات هي: يُركِّز نظر المريض على نقطة مرتفعة، بحيث لا يتزحزح نظر المريض عن هذه النقطة كخطوةٍ أولى. ثُم يُغمض المَريض عينيه، ثمّ يُركّز على عمليّة التنفس. ويقوم الاختصاصي النفسيّ بإرخاء جميع أعضاء جسم المريض، من خلال استخدامه لنبرات صوتيّة تَختلف باختلاف العضو المُراد إرخاؤه. يصل المريض إلى مرحلة من الاسترخاء العميق؛ بحيث يبتعد عن الواقع بشكل تدريجي، ولكنه يبقى في حالة من السمع والوعي بما يدور حوله في هذه المرحلة.

لحالاتٍ خاصّة تختلفُ الخطوات التي يتمّ اتباعها في التنويم المغناطيسي باختلاف الفرد وعمره وتصنيفه، وفي الآتي بعضُ الطّرق التي يتمّ اتباعها مع بعض الأفراد: طريقة التنويم المغناطيسي والمدخنين أفادت الدّراسات الحديثة إمكانيّة استعمال التنويم المغناطيسيّ أو الإيحائي كطريقةٍ ناجحةٍ وفعّالة للإقلاع عن التدخين حيث أشار الدكتور زهير حسن خشيم اختصاصي التنويم المغناطيسي واستشاري في العلاقات الأسريّة أنّ عمليّة التنويم المغناطيسي بالنسبة للأشخاص المدخّنين بأن المريض يجبُ أن يكونَ مُستعدّاً نفسياً، ولديه القابلية للعلاج قبلَ الدخول للجلسة؛ حتى تتحقق الأهداف المطلوبة منها. ثُم الدخول للعقل الباطنيّ للفرد المُدخّن بعد تنويمه مغناطيسياً. وتُبيَّن وتُشرح مخاطر التدخين وتأثيره على صحة الجسم. فتُزرع الأفكار في ذهن المُدخن المُنوّم مغناطيسيّاً بهَدف التأثير على تَصرّفاته عند الانتهاء من جلسة التنويم المغناطيسي.

أما عن التنويم المغناطيسي وإنقاص الوزن فيَكمُن علاج السمنة في دماغ الإنسان وليس في بطنه؛ إذ يتحكّم الدِّماغ بالهرمونات المتخصّصة بالجوع والشّبع؛ ولهذا السبب يلجأ البعض إلى أساليب مُختلفة ومُبتكرة لحل مشكلة الوزن الزائد، وإحدى هذه الطرق استعمال التنويم المغناطيسي في العلاج، خاصّةً أنّ الكثير من طرق مُعالجة مشكلة الوزن الزائد تبوء بالفشل بسبب عادات تناول الطعام السيّئة التي لا يستطيع البعض التخلي عنها، والتي تؤدّي في الغالب لتناول كميات كبيرة من

الطعام بعد الريجيم. يتمّ إنقاص الوزن باستخدام التنويم المغناطيسي عن طريق مخاطبة العقل الباطن للشخص وإقناعه بأنه لا يوجد نوعٌ من الأكل ممنوعٌ منه. ويتمُّ التلاعب بطريقةٍ إيجابيّة بالعقل الباطن للشخص، بحيث يُزال الطبق جانباً حتى لو كان فيه شيءٌ يُؤكل، حتى يَصلُ العقل الباطن لمرحلة من القناعة تجعله لا يَرغب في أكل المزيد من الطعام بل يَشعر بالشّبع.

أما عن الآثار الناتجة عن التنويم المغناطيسي فتَظهرُ على الإنسان الذي تعرّض له؛ حيثُ تختلف هذه الآثار من شخصٍ لآخر، فيشعر البعض بأنّ الأمور تسري بشكل طبيعي ووفق مجال إدراكه ووعيه، بينما يشعر آخرون بحالةٍ من الاسترخاء والهدوء التام تَعزلهم عمّا حولهم، ويشعر آخرون بحالة من الاستيقاظ التّام والإدراك الكامل الذي يجعلهم قادرون على إجراء أحاديث مع الناس حولهم، ولمعرفة مدى فاعليّة التنويّم المغناطيسي على تخفيف الألم أُقيمت تجربة على أحد الأشخاص المتطوّعين؛ حيث تم تنويمه مغناطيسياً ثم وُضعت إحدى يديه في الماء المُثلج لمراقبة ردّة فعله، فكانت النتيجة بأنه لم يُخرج يده إلا بعد عدّة دقائق، الأمر الذي لا يَستطيع الإنسان غير المنوّم مغناطيسياً فعله؛ إذ لا يستطيع الإنسان غيرُ المنوّم مغناطيسياً أن يُبقيَ يده في الماء المُثلج لمدّةٍ تتجاوز عدّة ثوانٍ.

هُناك عدة موانع لاستعمال التنويم المغناطيسي، وهي ألا يُمكن استخدامه في علاج أصحاب الشخصيّات الوسواسيّة. ولا يُمكن

استخدامه في علاج أصحاب الشخصيات الشكاكة؛ وذلك لانعدام ثقتهم في الأشخاص من حولهم، بمن فيهم الشخص المُعالِج.

للتنويم المغناطيسي آثارٌ جانبيّة نادرة على بعض الأشخاص، منها: الشعور بالضيق أو بحالاتٍ من التوتر. الشعور بالدوار والنعاس. الشعور بآلام في الرأس. اصطناع ذكريات غير حقيقيّة لا تمُتّ للواقع بصلة.

كما يعتقد البعض أنّ التنويم المغناطيسيّ يُستخدم للتحكّم في المرضى، وهذه اعتقادات خاطئة لا تمتّ للحقيقة بصلة. ويحدث التنويم المغناطيسي بمُوافقة المريض؛ إذ لا يُمكن إخضاع أيّ شخص للتنويم المغناطيسي دون موافقته على القيام بأفعال ضدّ حالته الطبيعية. كما يستطيع الإنسان الخاضع للتنويم المغناطيسيّ إدراك وسماع كُلّ ما يجري من حوله.

مما سبق وجدنا أن النوم شيء مهم في حياتنا اليومية؛ وكما أن للنوم مزايا فله سلبيات؛ هذا بالإضافة للطرق الصناعية التي تجلب النوم والاسترخاء ومنها التنويم المغناطيسي؛ لذا بسبب هذا العالم الكبير والعميق المُسمي بالنوم جاء دور هذا الكتاب المهم الذي يتحدث عن عدة أمور نفسية بحتة كتبها عالم مُتخصص في مجاله بين لنا من خلاله طرق النوم والتنويم المغناطيسي؛ كما وضح أنواع من الجرائم النفسية التي تحدث عنها علماء النفس بإيضاح كبير كي تخرج في النهاية من هذا الكتاب الكنز بالكثير من المعلومات المهمة التي تُفيدك وتُفيد

الآخرين في عالم النوم والأحلام السرمدي الذي لا نعلم عنه سوى اليسير. هيا اغتنم الفرصة وانهل من هذا الكتاب المهم الذي يحوي بين طياته الدُر والجوهر من المعرفة والثقافة.

د. محمد حسام الدين

نظرية فرويد في تفسير الأحلام

ربما كان عنوان الموضوع داعيا إلى التساؤل. ما بال رجل القانون والمحقق المفروض فيه أنه رجل حقائق ووقائع، مهمته كشف الحوادث المعتادة وإثباتها بالدليل المحسوس والبرهان الملموس، يخوض غمار بحث هو إلى الأوهام والخيالات أقرب منه إلى الحقائق والمشاهدات، فإنه معروف عن تفسير الأحلام منذ القدم أنه ضرب من ضروب التكهن بالغيب والإنباء بالمستقبل، وقد وصفه العلماء بأنه نوع من أنواع الشعوذة والتدجيل، ولكن حاشا أن يكون هذا مقصدنا من تفسير الأحلام، فإننا لا نزال رجال حقائق ومشاهدات لا رجال أوهام وخزعبلات، فما قصدنا أن نتكلم عن نبوءة الأحلام أو علاقتها بكشف الغيب والمستقبل، بل قصدنا الوقوف على ما وصلت إليه أبحاث العلماء في العهد الأخير عن علاقة الأحلام بحاضر الإنسان وماضيه وبمستقبله أيضا ولكن بمستقبله القريب لا عن طريق التكهن بالغيب بل عن طريق ارتباط المقدمات بالنتائج، فقد أثبت العلم أخيرا أن للأحلام معان ومرام لا تقل في غرابتها عن الإنباء بالغيب، فهي إن دلت على أمور حاصلة بالفعل أو حصلت في الماضي، ما زالت مجهولة لنا في أكثر من الأحيان تمام الجهل. وإن صح أن يسمى المجهول من أمورنا مما يستعصي علينا كشفه غيبا جاز لنا القول أن الأحلام تكشف لنا الغيب من هذه الناحية.

فإلى عهد غير بعيد كانت زمرة العلماء ترمي الأحلام بالسخف والازدراء لاعتقادهم أنها إن هي إلا مجموعة من مختلف الصور الفكرية المتناقضة والتي لا رابطة بينها، تجتمع في المخيلة عند اللزوم على غير هدى كما تجمع قصاصات الورق في سلة النفايات، ولذلك فهي لا تستحق في نظرهم اهتماما أو درسا أو بحثا، ولم تتجه أنظار العلماء إلى بحث الأحلام من الوجهة العلمية وتحليلها نفسيا إلا من عهد قريب حيث أظهر الاختبار ودلت التجربة على أن للأحلام معان باطنة ومرام خفية تدل على ما يكنه الإنسان في أعماق نفسه ويحفظه في سويداء قلبه ومستودع عقله الباطن من الحوادث والمؤثرات النفسية التي قد يتعذر عليه الوقوف عليها أو كشفها في اليقظة فتظهر في الرؤيا، ولكنها لا تظهر غالبا بحقيقتها بل في شكل رموز أو طلاسم فمن استطاع حلها أمكنه فهم معانيها وإدراك مراميها.

فالأحلام "ترجمان النفس" أو بعبارة أخرى هي "لغة العقل الباطن" ولكنها ليست لغة كلامية أو لفظية بل لغة رمزية، قواعد التعبير فيها قائمة على الصور الرمزية المنبعثة من ملكة الخيال، وهي في تعبيرها الرمزي قريبة الشبه بالهيروغليفية أعني كلماتها وعباراتها مؤلفة من مجموعة من الصور والرموز، ولهذه اللغة نحو وقواعد فمن درس نحوها وقواعدها استطاع قراءتها، وإن جهود العلماء ترمي الآن إلى حل رموز هذه اللغة الأثرية في تاريخ العقل البشري ودرس قوانينها وقواعدها، وتدل المقدمات على أنهم بإذن الله واصلون.

وأول من لفت نظر العالم نحو تفسير الأحلام تفسيرا علميا هو ذلك الطبيب النمساوي الذائع الصيب العلامة "سيجموند فرويد" ولعل الفضل في هذا الاكتشاف الخطير يرجع إلى التجارب التي كان يجربها في أثناء معالجته مرضاه بطريقة التحليل النفسي، فإنه أدرك بالاختبار المتكرر أن بين الأحلام والحالات النفسية التي يشكو منها هؤلاء المرضى ارتباطا وثيقا، فوجَّه ذلك الارتباط نظره إلى دراسة الأحلام وحل رموزها، وبعد أن درس الموضوع درسا علميا منظما مؤسسا على التجربة والاختبار لا على مجرد الحدس والتخمين، أبرز في سنة ١٩٠٠ كتابه المشهور المعروف باسم "تفسير الأحلام" وقد ترجم إلى الإنجليزية وإلى الفرنسية.

وهو أول كتاب فريد في بابه، ويعتبر بحق أنه الحجر الأساسي لهذا البحث الخطير، وقد ضمَّنه نظريته المشهورة التي أثارت أعظم ضجة في عالم الأبحاث النفسية وهي "أن الأحلام ترمي إلى تحقيق رغبة أو تعبر عن أمنية دفينة في النفس، وإن هذه الرغبة في أغلب الأحيان جنسية أي مرتبطة بالغريزة التناسلية"؛ فقام العلماء في وجه فرويد، ورماه البعض بالتدجيل والشعوذة، وليس هذا غريبا في تاريخ العلم، بل هو شأن كثير من النظريات العلمية الخطيرة عند إبرازها لأول مرة في العالم، ومازالت الضجة التي قامت حول نظرية تشارلس داروين في نشر الأنواع ماثلة أمام الأعين.

فالعلامة "سيجموند فرويد" يعتقد أن للأحلام فائدة عظمى للعقل البشري لأنها ترمي إلى تحقيق كثير من الرغبات التي تشتهيها النفس وتتعطش إليها، ولكن لم يستطع المرء أن يروي غلتها ويطفئ حرارتها في الحياة العملية وبالأخص ما كان منها يرجع إلى عهد الطفولة أو مبدأ حياة الإنسان على وجه العموم ومعظمها من الرغبات والمشتهيات الجنسية التي اضطر الإنسان تحت ضغط التقاليد الاجتماعية والتعاليم الدينية والآداب القومية أن يكبتها في قرارة نفسه ويكظمها في أعماق قلبه فارتدت من ساحة "الشعور" إلى جوف "اللا شعور" حيث ربضت في مكمنها لتكون مصدرا للقلق وينبوعا مستترا يهدد المرء في مستقبل العمر بالثورات النفسية والاضطرابات العصبية، وهي تغلي كالبركان أو المرجل تحت ضغط الإرادة أو القوة الكابتة للذكريات المؤلمة والتي أطلق عليها فرويد اسم الكبت وأسماها أحيانا بالرقيب.

ولكن لما كانت شدة الضغط قد تولد الانفجار "والانفجار هنا معناه ظهور نوبات عصبية أو اضطرابات نفسية" فلا بد إذن للشهوات المضغوطة من منفذ تفلت منه بعض قواها المحتبسة ليخف الضغط عن القوة الكابسة، وبذلك يتفادى الانفجار؛ فالأحلام من هذه الناحية أشبه شيء بصمام الأمان لمرجل الانفعالات المضغوطة في جوف العقل الباطن أو اللاشعور.

ونظرية فرويد في أن معظم الأحلام ترمي إلى تحقيق رغبة جنسية قائمة على اعتبار أن الغريزة التناسلية – مع أنها من أقوى الغرائز البشرية

إن لم تكن أقواها جميعا – هي الغريزة التي تلاقي من المجتمع أكبر ضغط ومن التقاليد أكبر قوة كابحة، لهذا كانت أحلامنا تعبر عن تلك الرغبات كما أن الكثير من هذه المشتهيات يرجع إلى عهد الطفولة، وهي في الغالب تكون موجهة نحو المحارم من الأهل والأقارب كالوالدين والأخوة، وقد يدوم أثرها في النفس طول العمر ويلازم الإنسان مدى الحياة وهو لا يدري، وكل ما يشعر بعه اضطراب وقلق لا يعرف شيئا عن مصدره فتتحقق هذه المشتهيات في الرؤيا وتعاودنا في شكل أحلام في جميع أدوار الحياة ولا تفتر تتردد علينا من حين إلى حين حتى سن الكهولة، ولكن لما كانت هذه المشتهيات ضد الآداب والتقاليد وتعاليم الدين فإنها عادة لا تظهر بمظهرها الحقيقي لأن ذلك مؤلم لوجدان النائم يوقع الغريزة الجنسية في نضال حاد مع ضمير الإنسان الذي هو وريث التقاليد الاجتماعية، نضال تضطرب له أعصابه وترتج له أركان عقله ووجدانه فيتنبه من رقاده مذعورا، فلأجل التوفيق بين هاتين النزعتين المتعارضتين تصير المشتهيات مقنعة فتتخذ لنفسها صورا نقشتها ريشة الخيال، وتماثيل نحتت من لغة الرموز الأثرية. فإذا بها كمن يلبس ثوبا ممزقا أو يستتر تحت رداء مستعار لكي يغافل الرقيب ويفلت منه ولهذا كانت مهمة الباحث النفسي نحو حل هذه الرموز شاقة معقدة، إذ قد لا يتسنى حل طلاسمها إلا بتحليل نفسي دقيق يتطلب منه إلماما بماضي المرء وظروفه الخاصة والعامة وبيئته التي عاش فيها والسلالة التي نشأ منها.

فنظرية فرويد في تفسير الأحلام يمكن تلخيصها فيما يلي:

إن الرؤيا لها معان ظاهرة سماها فرويد بالمحتويات الصريحة للرؤيا، ومعان خفية سماها بالمحتويات الكامنة وهي المستترة تحت رداء الرموز، وإن المعنى الكامن يعبر عن تحقيق رغبة لم يحققها الإنسان في حياته اليومية، وإن هذه الرغبة في معظم الحالات تكون رغبة جنسية أو تدور حول الميل الجنسي حتى ولو كانت وقائع الرؤيا في ظاهرها بريئة من الميل الجنسي، ولا تتم عن الرغبة الخفية المستترة خلف رموزها.

وقد ذكر فرويد على سبيل المثال أن سيدة كان يعالجها رأت في منامها أن ابن أختها الوحيد توفي فقامت من نومها مذعورة جزعة، ولما ذهبت إلى فرويد طلبت منه في لهجة المتهكم المستهتر أن ينبئها عن أي مغزى جنسي ينطوي عليه مثل هذه الرؤيا وأية رغبة دفينة أو مشتهى نفسي ترمي إليه. فوضعها فرويد تحت إجراءات التحليل ولما حلل ذكرياتها الكامنة وخواطرها الدفينة في أعماق اللا شعور ظهر أن شقيقة الفتاة كان لها ولد آخر توفي في عام سابق، وقد حضر المأتم شاب وسيم الطلعة على جانب من الظرف والأدب لتقديم فروض العزاء لأفراد العائلة؛ فآنست الفتاة منه عطفها نحوها ترك في نفسها أبلغ أثر، وقد تمنت وهي عذراء لو مد إليها يد الخطبة، ولكنها كظمت ما وجدته في نفسها من لوعة ثم ألهتها تصاريف الأيام عن ذكراه الدفينة في قرارة النفس إلى حين أن تناولت في ليلة الرؤيا جريدة قرأت فيها خبر عزمه على إلقاء محاضرة في ناد معين، فأصرت في نفسها على الذهاب إلى

سماع المحاضرة في الموعد المضروب، وفي تلك الليلة رأت في منامها تلك الرؤيا المشؤومة الخاصة بموت ابن شقيقتها الثاني؛ فبين لها فرويد طبيبها ما انطوت عليه هذه الرؤيا وأنها – على الرغم مما اتصفت به من سمو الأخلاق ورقة الشعور – اشتهت في العقل الباطن موت ابن أختها الثاني لكي تتاح لها فرصة اجتماعها بذلك الشاب عند حضوره معزيا أسوة بالمرة الأولى.

انتشرت النظرية الفرويدية في الدوائر العلمية، فالبعض قبلها برمتها، وانضم في الرأي إلى فرويد وأيده بأبحاث وتجارب جديدة، والبعض خالف فرويد فيها من بعض الوجوه. والبعض الآخر وقف تجاهها موقفا عدائيا ورماها بالنقد المر وشهَّر على فرويد وأعوانه من جرائها. ولكن هذا الفريق الأخير بدأ يتضاءل ويتلاشى في بضع السنين الأخيرة.

وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى وجهة نظر طبيب سويسري جليل القدر لا يقل فضلا عن العلامة فرويد، وهو الأستاذ يونج في زيوريخ. فإنه وإن كان قد نسج على منوال فرويد في تفسير الأحلام من حيث اعتبارها لغة العقل الباطن وأنها رمزية، خالف فرويد في ثلاثة أمور وهي:–

١– في قصر الأحلام على الميل الجنسي.

٢– في علة ظهورها بشكل رمزي.

٣– في مرمى الأحلام وعلاقتها بالماضي والحاضر والمستقبل.

عن الوجه الأول: بينما فرويد يقول إن الأحلام – معظمها إن لم تكن كلها – تعبر عن تحقيق رغبة جنسية.. يقول يونج أن الأحلام تعبر عن كثير من الرغبات غير الجنسية، وأن القاعدة التي يبني عليها فرويد نظريته وهي تفوق الغريزة الجنسية على باقي الغرائز البشرية والأخرى وانفرادها بملاقاة أعظم قوة كابتة مخالف للواقع لأنه بذلك تجاهل غريزة هي في نظر يونج أعظم شأنا من غريزة الميل الجنسي ألا وهي غريزة "حب التسلط"؛ فهي الغريزة التي لها المقام الأعلى بين مجموعة الغرائز البشرية وفيها الغريزة الجنسية: وهي تشمل حب الزعامة والقيادة وحكم الشعوب والقيام بالأعمال المجيدة وحب المجد والعظمة والشهرة والتي قد تدفع الإنسان إلى المخاطرة بحياته واقتحام الصعاب وتضحية النفس، وما إلى ذلك من عظائم الأمور. وإن هذه الغريزة كثيرا ما تلاقي في الحياة من الصدمات ومعاكسات الدهر ما يدعو إلى كبتها وكظمها فتظهر في أحلامنا عند اللزوم. فكأن أحلام اليقظة إذا لم تتحقق في عالم الحياة ارتدت إلى عقلنا الباطن لتتحقق في عالم الخيال.

ولكن فرويد يرد على ذلك الاعتراض بأن غريزة حب التسلط منشؤها في الأصل يرجع إلى الغريزة الجنسية، وهي تسلط الذكر على الأنثى واستخدام القوة في الوصول إلى إخضاعها لتحقيق الأغراض الجنسية. ثم تطور هذه النزعة إلى الزعامة العائلية وتسلط رب العائلة على أفرادها. ثم تحولها إلى زعامة الشعوب وحكمها والتي لم تخرج عن

كونها مثلا مكبرا من الزعامة العائلية. ولكن الأستاذ يونج رد على ذلك بقوله:

إن غريزة حب التسلط هي الأصل والغاية، وإن غريزة الميل الجنسي أو الغريزة التناسلية هي مجرد وسيلة للوصول إلى هذه الغاية، إذ المقصود بها الإكثار من النسل وانتشاره. ومعناه تقوية النوع وتسلطه على باقي الأنواع الأخرى؛ فهي مظهر من مظاهر التنافس النوعي أو حب التسلط الاجتماعي.

عن الوجه الثاني: لما كان يونج يرى أن الأحلام غير مقصورة على المشتهيات الجنسية، وأن الكثير منها متعلق بتحقيق كثير من الرغبات الأخرى التي لا مخالفة فيها للآداب والتقاليد والمعتقدات فإن العلة التي ذهب إليها فرويد لتعليل ظهور الأحلام بشكل رمزي لا تتفق مع وجهة نظر يونج، وإذن لا بد له من البحث عن نظرية جديدة تستقيم مع وجهة نظره فوضع تعليلا على جانب من الوجاهة، وهو أن اللغة الرمزية هي لغة البشر قبل التاريخ والتي كان التفاهم قائما عليها في القرون الأولى؛ فهي تراث الآباء والأجداد والقدماء. فهي إذن بضاعة العقل الباطن. أما اللغة الكلامية فمن بضاعة المدنية الحديثة ومن متعلقات العقل الظاهر. ولما كان العقل الظاهر عند النوم في حالة ركود وسكون وأن ظواهر التفكير مصدرها العقل الباطن فمن الطبيعي أن يكون تعبير المرء في الرؤيا بلغة هذا العقل القديم وهي الرموز.

عن الوجه الثالث: الأمر الثالث الذي خالف فيه يونج فرويد هو عدم قصر الأحلام في دلالتها على الماضي فهو يقول أن هناك من الأحلام ما يعبر عن الوجدانات القائمة فعلا بالنفس فيعبر عنها في الرؤيا بصورة رمزية، كما أن بعض الأحلام قد يكون ذا دلالة على ما ترمي إليه النفس من المقاصد أو ما تتوقع حصوله في المستقبل مسترشدة في استنتاجها بما توافر لديها من مقدمات.

فبينما فرويد يقصر وجهة نظره على النظرية السببية أعني يعتبر الأحلام مجرد نتيجة لمقدمات يرى يونج تعميم القاعدة بحيث تشمل أيضا النظرية القصدية التي تعتبر بعض الأحلام مقدمات لنتائج مقصودة.

وفوق ذلك قد رأى يونج أن الأحلام لا تدل على ما مضى فحسب، بل على ماضي السلالة البشرية والنوع بأسره، فالنفس البشرية للفرد تحمل في طياتها خبرة الجدود في العصور الغابرة وما كابده النوع من تجاريب وما مارسه من تقاليد وعادات. وقال يونج أنه قد تسنى له أن يحلل أحلام بعض الناس واستدل بذلك على السلالة التي انحدروا منها أو الجنس البشري الذي ينتمون إليه.

وإن أبسط مظاهر الأحلام وأقلها تعقيدا هي الأحلام التي ترمي إلى تحقيق رغبة صريحة لا غبار عليها كأحلام الجوعان والعطشان، فقد يرى الجائع أنه جالس على مائدة طعام فيها من مختلف المآكل أشكال وألوان. وليس فينا من يجهل المثل العامي المعروف "حلم الجوعان

عيش" كذلك الظمآن قد يحلم أنه يشرب ماء فيرتوي ظمؤه في الرؤيا، ولذلك يخف عنه ألم العطش فلا يضطرب رقاده؛ ولهذا لقب العلامة فرويد الحلم بأنه "حارس النوم".

ومعظم أحلام الأطفال من هذا النوع الصريح فإن الطفل إذا رأى لعبة في دكان أو فاكهة على مائدة طعام وتاقت نفسه إليها ولكنه حرم منها، فإنه قد يحلم في نومه أنه حصل على اللعبة أو أكل الفاكهة، كذلك إذا كان رضيعا وجاع فقد يحلم بالرضاع، وكثيرا ما يحلم الأطفال بالرضاع بعد الفطام وكثير من الرغبات التي ادخرها الإنسان أو كظمها منذ عهد الطفولة قد تظهر في أحلامه وهو يافع أو شاب أو كهل، فإن حب الأطفال للنقود مشهور وغالبا ما يحرمها الأهل عليهم حتى لا يسيئوا استعمالها في مشتريات قد تضر بهم فيضطر الطفل إلى كظم هذه الرغبة ولكنها لا تنمحي بل تلازمه طول حياته. ومن أجل ذلك قد نحلم ونحن كبار أننا نجمع نقودا من الأرض بكثرة وبخاصة النقود البيضاء لأن الأطفال عادة لا يعرفون للذهب أو العمل من الورق قيمة.

إن الأطفال، وإن كانت أحلامهم في أول عهد الطفولة غالبا ما تكون بسيطة صريحة، كلما تقدموا في السن ازدادت أحلامهم إبهاما وغموضا وأصبحت تعبيراتهم الباطنية أقرب إلى الرموز منها إلى الصراحة وهو ما يستدعي لتفسيرها إجراءات تحليل أكثر تعمقا وتعقدا. وعلى سبيل المثال أذكر الرؤيا الآتية لإحدى بناتي فهي رؤيا وسط بين الصراحة والرموز، وصاحبة الرؤيا في السنة الثانية الابتدائية، وملخص الرؤيا أنها

رأت والدتها واقفة في شرفة المنزل (البلكونة) وحولها لفيف من بنات المدرسة ومن بينهن شقيقتها (أي ابنتي) الصغرى ثم رأت والدتها تلقي بالبنات واحدة بعد واحدة من الشرفة إلى الشارع حتى جاء دور شقيقتها الصغرى فحاولت أن تنقذها من يد أمها فلم تفلح وألقتها أمها أيضا أسوة بباقي التلميذات من الشرفة أما هي (أي ابنتي الكبرى صاحبة الرؤيا) فإن أمها لم تمسها بسوء بالرغم من تطوعها لافتداء أختها.

وقد أظهر التحليل وتسلسل خواطر ابنتي عن وقائع هذه الرؤيا أن الأم كانت لديها رمزا للمعلمة أو ناظرة المدرسة، وأن شرفة المنزل كانت رمزا للفصل. والمنزل الذي اجتمع فيه التلميذات رمزا للمدرسة. وإذا عرفنا ما كانت عليه ابنتي ذاك الحين من ضعف في مادتين من مواد الدراسة، وهما الحساب واللغة الإنجليزية، وأنها كانت كثيرة السقوط فيهما في الامتحانات الدورية في غضون السنة وتخشى السقوط في الامتحان النهائي بسببهما سهل علينا أن ندرك المعنى الرمزي لإسقاط التلميذات من شرفة المنزل وما ينطوي عليه من رغبة مكظومة ترمي إلى السقوط المعنوي في الامتحان فهي كانت تشتهي في الباطن لو أن ناظرة المدرسة أو المعلمة التي رمزت لها في الرؤيا بالأم أسقطت جميع تلميذات فصلها في الامتحان حتى لاتعير بالسقوط إذا ما انفردت هي به. أما تمنيها سقوط أختها الصغيرة فقد جمع بين أمنيتين، إحداهما حديثة تتعلق بسقوطها في الامتحان أيضا (بسبب ما كانت عليه أختها المذكورة من التفوق في فصلها ولو أنها كانت في فصل أدنى) والأمنية

الثانية تتعلق بما كانت تكنه من قديم من وجدانات الغيرة والحقد منذ كانت أختها حديثة الولادة بسبب ما ترتب على مجيئها في الحياة من مزاحمتها فيما كانت قد اختصت به من العناية الوالدية والاهتمام حيث كانت البكر وبدون مزاحم.

ويقول فرويد أن رغبات الأطفال قد لا تخلو من الميول الجنسية في كثير من الحالات فالطفل يلج باب هذا العالم وهو يحتمل في حقيبة عقله الباطن ذخيرة وافرة من النشاط الغريزي، ولكن هذا النشاط يتخذ في تلك المرحلة صورا وأوضاعا تلاءم حياة الطفل واستعداده الجثماني. ومع هذا قد نشاهد في سلوك الطفل أمورا تدل على توافر النزعة الجنسية في نفسه كالغيرة التي تشاهد في الطفل على أمه من أبيه أو على الطفلة من أمها على أبيها، حتى قيل إن الطفل إن كان ذكرا كثيرا ما يشتهي موت أبيه وإن كانت بنتا تشتهي موت أمها (والموت في نظر الطفل معناه أية وسيلة لإبعاد الطرف المزاحم) وذلك لكي يخلو له الجو بمن يحبه ويهواه، ولكن كلما اشتد ساعد الصغير قويت إرادته على إخماد هذه الميول المحرمة وكبتها في العقل الباطن، ولكنها لا تلبث أن تظهر في أحلامه وهو كبير بشكل رمزي لأن ضمير الإنسان ووجدانه المكتسب بالتربية والآداب القومية يجعل من أشق الأمور عليه أن يرى نفسه يمارس عملية القران الجنسي مع المحارم من الأهل وذوي القربى أو موت أحدهم.

ومع أن معظم الأحلام ترمي إلى تحقيق رغبة أو شهوة فإن من الأحلام ما يمكن اعتباره وصفا لانفعالات أو تأثرات نفسية قائمة أو وجدانات هائمة بالنفس دون أن ترمي إلى تحقيق رغبة معينة. وعلى سبيل المثال أذكر وقائع الرؤيا الآتية مع بيان تفسيرها نقلا عن مذكراتي الخاصة. أما وقائع الرؤيا التي تقدمتها فهي كما يأتي:-

"بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٧ توفيت المرحومة والدتي بنزف خفي وكان قد أصابها هذا النزف للمرة الثالثة أما المرتان الأوليان فكانت إحداهما في سنة ١٩١٩ والأخرى في سنة ١٩٢٢ ومنذ ذلك الحين كنت أشعر بقلق دائم على حياتها وأوجس خيفة من النكسة الثالثة لخطورتها وقد لازمتني حالة القلق إلى حين وفاتها، وبعد الوفاة بأسبوعين تقريبا رأيت الرؤيا الآتية:

وجدتني في ميدان فسيح يشبه ميدان عابدين في اتساعه وإن جنديا حكم عليه بالإعدام قد جيء به إلى ساحة الميدان لتنفيذ الحكم فيه رميا بالرصاص. أما إجراءات التنفيذ التي اتبعت معه فهي أنه وضع في وسط جماعة من رفاقه الجنود يبلغ عددهم نحو سبعة، وكان الجندي المحكوم عليه من دونهم معصوب العينين، والإجراءات تقضي بأن يسير هؤلاء في شبه دائرة متسعة حول رحبة الميدان وبينهم الجندي المذكور.

وفي وسط الميدان اجتمع عدد قليل من الجنود المكلفين تنفيذ حكم الإعدام وبأيديهم بنادقهم فبعد أن يدور جماعة الجنود الثمانية عدة

دورات تعطى لهم إشارة من الضابط رئيس القوة المنوط بها التنفيذ من مقتضاها أن ينفصل باقي الجنود السائرين عن زميلهم معصوب العينين ودون أن يمر حتى يمكن إطلاق النار عليه حالة انفراده، ففي أثناء قيام الجنود الثمانية بدورانهم ألفيتهم قد انفصلوا عن رفيقهم المحكوم عليه بحيث أصبح منفردا فأدركت في الحال أن لحظة التنفيذ قد دنت فحولت وجهي عنه حتى لا أراه عند إصابته برصاص البنادق وعلى الفور أطلق الجنود بنادقهم، ولكن بالرغم من شدة تأثري دفعني الفضول إلى النظر إلى الجندي عقب انطلاق النار، فوجدته واقعا على الأرض وهو منكفئ على وجهه يعالج سكرات الموت فهالني المنظر وحولت وجهي عنه ثانية. بعد ذلك انتقلت بي الرؤيا فجأة إلى المنزل حيث وجدتني فيه مع شقيقتي الصغيرتين ثم وجدت بيد إحداهما بندقية تبغي إطلاقها على رأس الجندي المحكوم عليه وهو يحتضر بقصد أن تضع حدا لآلامه ولكنها بعد أن صوبت البندقية نحو رأسه أدارت وجهها عنه وهي في حالة اشمئزاز وتأفف. وأذكر أني لمتها وقتئذ لتصديها للقيام بمهمة كريهة كتلك فاعتذرت بعدم وجود من يقوم بها نيابة عنها. وبعد ذلك وجدت شقيقتها الأكبر سنا تناولني كوبا فيه سائل مصفر اللون مدمم فهمت وقتئذ أنه مخ الجندي الذي أعدم، فأفهمت شقيقتي الصغرى أن مهمتها تلك قد انتهت وفارق الجندي الحياة بدليل وجود مخه في الكوب، وقد شرب كل منا جرعة منه ولكن دون أن يشعر أحدنا بأية غضاضة ثم تيقظت من نومي وأنا في شدة التأثر والانفعال.

أما الرؤيا فقد فسرتها على الوجه الآتي:-

الجندي المحكوم عليه بالإعدام وهو رمز للوالدة حيث كنت في أثناء مرضها إذا مررت بغرفتها أدرت وجهي عنها محزونا، وكثيرا ما كانت تحدثني نفسي بأن هذه غرفة شخص محكوم عليه بالإعدام وفي انتظار ساعة التنفيذ. وعصب العينين في الرؤيا رمز لجهلها بموعد الأجل وأما الجنود السبعة فرمز لأولادها "إذ عددنا سبعة" وحكم الإعدام رمز لقضاء الله وحكم القدر وخصوصا إنني كنت رأيت قبل وفاتها بشهرين في المنام أنها توفيت وحضرت من الخارج ووجدت بعض معدات المآتم فأخذت أردد في الرؤيا قولي "هذا قضاء الله" ولعل قضاء الله وهو في ذهني رمز للموت هو الذي نبه في نفسي حكم الإعدام نظرا لما بين كلمتي قضاء وحكم من ارتباط وما بين عبارتي "قضاء الله" و"الإعدام" من الارتباط في المعنى. أما الميدان الفسيح فهو رمز لميدان الحياة. وربما كانت الدورات التي كان يدورها الجنود حول الميدان تعبر عن الدورات الحولية أو السنين التي قضتها الوالدة في المرض انتظارا لحكم القضاء المحكوم، وانفصال الجنود أو الرفاق عن الجندي زميلهم المحكوم عليه رمزا للفراق بسبب دنو الأجل. والإعدام بواسطة إطلاق الرصاص رمز لإهدار الدم وفيه معنى النزف المخي. وتحويل وجهي إلى الجندي يمثل تماما الموقف الذي كنت فيه عندما استدعاني الطبيب إلى رؤية والدتي وهي في دور الاحتضار إذ بمجرد أن وصلت إلى باب مخدعها حولت وجهي عنها ولم أقو على رؤيتها وإنما لمحتها وهي راقدة في سريرها

وكان شعوري وقتئذ يماثل تماما شعوري عند رؤية الجندي وهو واقع على الأرض عقب رميه بالرصاص.

أما البندقية التي كانت بيد شقيقتي الصغرى فكانت رمزا لقوة الإرادة التي اتصفت بها شقيقتي المذكورة ولاجترائها على دخول مخدع والدتها ساعة احتضارها ومواجهتها الموقف على الرغم مما كان له من أثر شديد في نفسي. أما الكوب الذي شربنا منه فرمز لتجرع كأس الفاجعة وتحمل غضاضتها بصبر – أما مخ الجندي فرمز للصبر والتقوى وهما صفتان كانت متحلية بهما الوالدة وقد كنت عقب وفاتها أردد في نفسي دائما قولي "اللهم ألهمني صبرها وتقواها" ولما كان مصدر هاتين الخلتين هو العقل وإن المخ هو موطن العقل والتفكير فشرب المخ كان رمزا يعبر عن الرغبة في التهام ما كانت متحلية به من فضائل ضنا بها على الثرى أو كمن يريد أن يسوغها كما يساغ الشراب بغير جهد أو عناء وهو فيه معنى الإلهام المطلوب، وذلك فضلا عما بين كلمتي إلهام والتهام من تشابه لفظي. وربما كان لذلك التصرف نظير بين عادات بعض القبائل في العصور الأولى وإن للرؤيا من هذه الناحية معنى أثريا يمت لتلك العصور تأييدا لنظرية "يونج".

وقد رأيت أن أجتزئ شطرا من إجراءات التداعي التي أنتجها التحليل لتكون بمثابة نموذج صغير يدل على كيفية تسلسل الخواطر التي انتهى إليها التحليل وهي نقلا عن مذكراتي:

(جندي) عشيرة. زمرة. أهل. أولاد.

(مخ) عقل. دين. إيمان. تقوى.

(كوب) كأس. شراب. حلو. مر. صبر.

[اللهم ألهمني صبرها وتقواها]

(ميدان) فسيح. فضاء. كون. عالم.

(بندقية) قتل. إعدام. حكم. قضاء. قدر.

إن تحليل الرؤيا المتقدمة قد يدل دلالة صريحة على أن هناك من الأحلام ما يعبر عن وجدانات قائمة بالنفس فعلا دون اشتمالها على رغبات جنسية مكبوتة ولكن هل لنا أن نقول أن ذلك فيه برهان كاف على خطأ النظرية الفرويدية في تحليل الأحلام وهي النظرية التي من مؤداها أن معظم الأحلام إن لم تكن جميعها تعبر عن تلك الأماني؟ لقد يحق لأصحاب هذا المذهب الاعتراض علينا بأن إجراءات التحليل التي اتبعت في سبيل تحليل الرؤيا المتقدمة وما قد يماثلها هي إلى مجرد التفسير أقرب منها إلى التحليل الذاتي الذي يقوم به الإنسان في سبيل تحليل خواطره الشخصية. مهما بلغ من الدقة وبعد النظر يتعذر أن يبلغ من العمق درجة تكفي لكشف المركبات الدفينة في أعماق النفس وقرارة اللاشعور، إذ أن التحليل العميق أشبه شيء بعملية فتح البطن وهو ما يتعذر على الإنسان أن يجريه بيده في نفسه بخلاف التحليل الذاتي

البسيط الذي يقوم به الإنسان إذ مثله مثل عملية فتح دمل صغير أو خراج سطحي. أفلا يحق بعد ذلك لفرويد وأصحابه القول بأن إجراءات التحليل لو سارت إلى مدى أبعد غورا في النفس مما وصلت إليه ليكشف عن المركب الجنسي المكظوم من عهد الطفولة؟ ألا يجدر بهم لفت النظر إلى ما تتضمنه وقائع أمثال الرؤيا المتقدمة من تعلق شديد بحث الأم تعلقا قد يشف من طرف خفي عن ذلك المركب المكظوم وهو المركب الوالدي المعروف فينا بمركب "أوديب".

لقد تكلمنا عن علاقة الأحلام بالماضي والحاضر ولم يبق أمامنا سوى كلمة وجيزة عن علاقتها بالمستقبل مستندين في ذلك إلى بعض الحوادث الواقعية والمشاهدات. غير أنني لست ممن يؤمنون بصلة الأحلام بالمستقبل إلا عن طريق ارتباط المقدمات بالنتائج، وإن كل رؤيا تدل على أمر يتحقق في المستقبل القريب أو البعيد لا بد أن تكون لها مقدمات تدل على هذه النتيجة، وكل ما في الأمر أن المقدمات قد أصبحت مجهولة منا بعد أن كانت معلومة لنا ثم اختفت في غياهب اللاشعور وظلت هنالك عاملا دفينا من العوامل التي ساعدت على الاستنتاج الباطني. فإن غفل العقل الظاهر عن كثير من شؤون الحياة التي كابدناها أو مرت بنا في الماضي فإن ذكرياتها لا تزال محتفظا بها في جوف اللاشعور تمد العقل الباطن بكل ما يلزمه من عناصر الاستنتاج، ولهذا كان العقل الباطن أصدق في الحكم على الأمور وأبعد نظرا في استطلاع المستقبل من العقل الظاهر.

وزيادة في الإيضاح نضرب لذلك بعض الأمثال.

المثال الأول: رأيت ذات ليلة في منامي أن صديقا من أصدقائي حضر من الخارج في تاريخ معين ونظرا لاشتغالي في ذلك الحين بدراسة الأحلام واهتمامي بتدوينها فقد دونت الحلم المذكور في مذكراتي ثم ترقبت الجرائد فإذا بي أقرأ بعد يومين نبأ قدومه من الخارج في نفس التاريخ الذي رأيته فيه في الرؤيا فاستفزتني هذه المطابقة إلى استطلاع سببها فدلني الاستقصاء على أن صديقي المذكور كان أخبرني مقدما في يوم سفره بالذات عن موعد عودته وكان ذلك يوم ٢٦ من شهر يوليو وإنه سيغيب شهرين كاملين ولكني نسيت ما كان أخبرني به غير أن هذه الذكرى لم تغب عن تفكيري الباطن نظرا لاهتمامي بأمر عودته لسبب من الأسباب، ولهذا ظل عقلي الباطن يعد الأيام يوما بعد يوم حتى إذا ما بلغت تمام الشهرين وهو يوم ٢٦ سبتمبر رأيته في منامي. فهذه الرؤيا لا تدل على شيء من التنبؤ بالمستقبل أو كشف الغيب بل كل ما فيها أنها تدل على يقظة العقل الباطن وسهره على فكرة مائلة في اللاشعور.

المثال الثاني: أبلغتني سيدة من أفراد العائلة على أثر ظهور طفح جدري الماء "الجديري" في وجهها أنها قبل ظهور أعراض المرض بخمسة أيام رأت في منامها أن شخصا لوث وجهه بفرجون كان قد غمسه في وعاء به سائر ملوث بالجراثيم، وفي اليوم التالي لهذه الرؤيا رأت في منام آخر أن امرأة عجوزا ناولتها وهي على حافة بئر علبة صغيرة بها على حبوب فتذوقت حبة منها ثم ألقت بها مع العلبة في البئر

فخاطبتها العجوز وقتئذ بعبارة تتضمن إن دمها "أي السيدة" قد تسمم وقضى الأمر وقد طلبت إلى هذه السيدة أن أبين لها وجه العلة بين هاتين الرؤيتين وظهور العلة والعلاقة السببية بين المقدمة والنتيجة. فكان جوابي لها أن لمرض الجدري دور تفريخ يختلف بين عشرة أيام وأسبوعين عادة وأنها في التاريخ الذي رأت فيه الحلمين المتتاليين كان قد مضى على تعرضها للعدوى زمن كاف لأن يترك في نفسها أثرا ينم على دبيب المرض في جسمها والشعور به عن طريق الإحساس الباطن أو بعبارة أخرى عن طريق العقل الباطن، ولهذا جاء الحلمان معبرين عن حالة المرض القائمة بالجسم تعبيرا رمزيا. فتلوث الوجه بالماء الملوث بالميكروب يدل دلالة ضمنية على جدري الماء الذي أكثر ما يهم السيدة فيه وجهها، والحبوب المسمومة التي تناولتها على حافة البئر رمز للبثور الجدرية.

المثال الثالث: رأى أحد أصدقائي مرة في منامه أنه أصيب بطلق ناري في إحدى خاصرتيه (ولا أذكر أيتهما لمضى الزمن) وبعد ثلاثة أيام أصيب بمرض كلوي حاد بلغ من شدته أن يئس من الحياة وأرسل تلغرافا لأهله بالحضور. وظاهر من هذه الحالة أن مقدمات المرض كانت موجودة وهي تحرك الحصاة قبل احتدام الألم بثلاثة أيام الأمر الذي أيقظ الرؤيا ونبه المريض إلى قيام أسباب المرض قبل ظهور أعراضه الثقيلة ببضعة أيام.

المثال الرابع: رأت فتاة في منامها أنها تزدرد رصاصا مذابا وبعد يومين من هذه الرؤيا أصيبت باختناق لوزي حاد.

المثال الخامس: رأت سيدة أنها تحمل حجر طاحون على رأسها، وبعد ثلاثة أيام أصيبت بالتهاب سحائي.

مما تقدم من الأمثلة يتضح أن من الأحلام ما قد يظن لأول وهلة أنه من قبيل الأنباء بالمستقبل في حين أنها لا تخرج عن كونها نتائج محتومة لمقدمات توفر العقل الباطن على العلم بها فبنى عليها أسباب استنتاجه، وقد عرفنا مما مر بنا عند التكلم على العقل الباطن مبلغ ما يتمتع به من قوة تفكير ودقة استنتاج قد تفوق ما للعقل الظاهر بمراحل، ولا غرابة في ذلك؛ فالعقل الباطن مستودع الذكريات والاختبارات الخاصة بالنوع والفرد معا وهو مجمع الثروات الفكرية الموروثة عن جميع السلالات من أول ظهور الحياة على وجه البسيطة حتى الآن فهو أدنى اتصالا بقوانين الله عز وجل ونواميس الطبيعة من العقل الظاهر.

التنويم المغناطيسي نوم طبيعي

التنويم المغناطيسي ظاهرة نفسية مسلم بها علميا، وهي عبارة عن نوم صناعي يمكن إحداثه بوسائل التنويم المعروفة في الدوائر العلمية كالتحديق في جسم لامع أو نقطة ثابتة لإحداث إجهاد مصطنع بأجفان العينين، والتأثير في الشخص المراد تنويمه بعبارات إيحائية تساعد على ارتخاء العضلات وتعطيل مراكز الحركة والحس تدريجيا حتى يستغرق الشخص في النوم..

وقد يحدث التأثير المطلوب بتمرير اليدين على جسم الشخص من الرأس إلى الكتفين فالذراعين فالساقين فالقدمين بطريقة متكررة مما يساعد على تهدئة الحالة النفسية والعصبية للشخص، على أن يجري ذلك في جو هادئ خال من الأصوات المزعجة، وفي ضوء خافت يساعد على التنويم.

ويخاطب المنوم الوسيط بصوت هادئ، يبعث في نفس الوسيط الثقة بالإيحاءات الصادرة إليه من المنوم، وقد تدعو الحال إلى أن يكون الإيحاء بصيغة الأمر لإحداث التأثير المطلوب.

ويمكن تعريف الوسائل التي تساعد على التنويم الصناعي الذي يسمونه "المغناطيسي" بأنها الوسائل التي تساعد على النوم الطبيعي.

وفي اعتقادي أن الفرق بين التنويم المغناطيسي والنوم الطبيعي هو فرق من حيث الكم لا من حيث النوع؛ فإن الشخص المستغرق في نوم طبيعي، يكون عادة على اتصال بنفسه إلى حد ما أثناء النوم. أما النائم مغناطيسيا فيكون على اتصال بشخص المنوم في أثناء النوم.

والاتصال بشخص آخر في أثناء النوم الطبيعي ليس من الأمور المستبعدة، فقد يلاحظ أن الأم إذا نامت وبجوارها رضيعها فإنه تكون عادة على اتصال نفسي بطفلها حتى لو كانت في سبات عميق. بحيث إن أقل حركة من الطفل قد توقظها وتنبهها إلى سد حاجاته. وأحيانا يتم ذلك وهي مستغرقة في النوم، فقد تضع ثديها في فمه وهي نائمة إذا ما انتبهت على بكائه. وكذلك الحال بالنسبة للشخص الذي ينام بجوار مريض يكون كلفا بالإشراف عليه.

وإذا نام شخص مشغولة بفكرة معينة، كان يكون مضطرا إلى الاستيقاظ في موعد معين، فإنه يبقى على اتصال بهذه الفكرة أثناء نومه، فإذا حل الموعد أيقظته الفكرة كأن الإنسان ينتزع من نفسه شخصية أخرى تسهر على مصلحته وتقوم بمهمة إيقاظه، ويطلق على هذه الظاهرة أحيانا اسم "تجزؤ الشخصية".

والنوم الطبيعي والنوم المغناطيسي من طبيعة واحدة، ويؤيد ذلك أن الظواهر التي تحدث في أثناء النوم الصناعي يمكن أن تحدث أثناء النوم الطبيعي أيضا.

مثال ذلك أن النائم مغناطيسيا قد يتكلم ويتحرك في أثناء عملية التنويم. والمستغرق في النوم الطبيعي كذلك تعتريه في بعض الأحيان نوبات يقظة كلامية فيتحرك في أثناء النوم، وكلاهما يتأثر بالإيحاء، وكثيرا ما لجأت إلى مخاطبة بعض أفراد أسرتي في أثناء نومهم الطبيعي مخاطبة إيحائية لمعالجة بعض الظواهر أو الأعراض النفسية، فكان ذلك يفيدهم.

والنائم مغناطيسيا قد يأتي أعمالا يؤمر بها بعد اليقظة، وهو المسمى بالإيحاء إلى ما بعد اليقظة. كذلك يمكن أن يؤمر النائم نوما طبيعيا بأن يأتي أعمالا بعد اليقظة، وقد أجريت تجارب من هذا القبيل مع بعض أفراد أسرتي. وإني لأذكر منها على سبيل المثال أنني كنت أعالج زوجتي من أعراض "الوحم" لمنع القيء، وذلك بأن أوحي إليها في أثناء النوم بعبارات تساعد على زوال هذه الحالة فاستفادت من هذه الطريقة بدرجة واضحة.

وفي ذات ليلة رأيت أن أجرب معها مبلغ تأثرها بالإيحاء إلى ما بعد اليقظة؛ فأوحيت إليها وهي نائمة، أنها عندما تستيقظ في الصباح وترى عصاي موضوعة فوق المائدة في حجرة الطعام تتذكر أن تصنع لنا صينية من المكرونة. ولما استيقظت في الصباح ودخلت غرفة الطعام شاهدت العصا على غير المألوف موضوعة على المائدة؛ فسألتني في ذلك، فاعتذرت لها بأني تركتها سهوا حين قدمت من الخارج ليلا.

وتناولت زوجتي العصا وذهبت إلى الصالة لتعلقها في المشجب، وبينما كانت تضع العصا التفتت إليَّ وقالت: "ما رأيك في صينية مكرونة بالفرن؟" فابتسمت. فسألتني: "علام تبتسم؟" فرويت لها ما فعلت، فلم تصدقني في بادئ الأمر، ولكني طلبت منها أن تحضر مظروفا وضعته في مكان معين من مكتبي. وعندما أحضرته طلبت منها أن تقرأ ما بداخله. وكنت قد كتبت فيه التجربة. وما أن انتهت من قراءته حتى ابتسمت وقالت: "الآن آمنت بعلمك..".

كما أن من الظواهر المعروفة أنه يمكن تحويل النوم المغناطيسي إلى نوم طبيعي بمجرد الإيحاء. كما يمكن تحويل النوم الطبيعي إلى نوم مغناطيسي عن طريق الاتصال بالنائم بالإيحاء.

وكثيرا ما اتصلت بزوجتي مغناطيسيا في أثناء نومها وحصل بيننا تخاطب في أثناء النوم لا يفترق مطلقا عن التخاطب الذي يحصل أثناء التنويم.

وفي هذه الأمثلة ما يؤكد أن التنويم المغناطيسي والنوم العادي، ظاهرتان طبيعيتان لا تفترقان إلا من حيث الكم لا النوع!

إن المقصود بالظواهر العصبية القهرية هي الحالات النفسية التي يسود عقل المريض فيها فكرة خاصة أو عقيدة معينة يجد نفسه مسوقا إلى التفكير فيها مرغما دون أن يأنس من نفسه قدرة على كبح جماح

هذا التفكير، وقد تدفعه الفكرة المتسلطة إلى التزامه مسلكا معينا في ناحية من نواحي الحياة يكون ذا طابع خاص محدد بأسلوب ثابت لا سبيل إلى التصرف أو التنوع فيه. فهي نوع من التفكير الجبري أو غير الإرادي الذي يرجع مصدره إلى بعض المركبات النفسية المشتملة على نزعات أو مشتهيات جنسية مكظومة، والتي انفصلت عن المجموعة الشعورية لما بينها وبين تلك المجموعة أو بعض مشتملاتها من تنافر فارتدت إلى جوف اللا شعور، ثم التمست لها في الحياة الشعورية مخرجا تتنفس منه الصعداء فتحولت إلى ظاهرة تفكير قهري وفكرة متسلطة.

فالظواهر العصبية القهرية مثلها مثل الهستيريا التحويلية قائمة على نظرية الكبت المرضي للتأثرات الجنسية الخاصة بعهد الطفولة، غير أن التأثرات أو الانفعالات الخاصة بالرغبات المكظومة بدلا من استحالتها إلى أعراض بدنية – كما هي الحال في الهستيريا التحويلية – فإنها تنفصل عن مركباتها وتتصل بأمور أو أفكار أخرى بريئة عليها أن تحمل طابع تلك الرغبات وتأثراتها.

فالهستيريا التحويلية قائمة على ظاهرة التحويل والهستيريا التسلطية قائمة على ظاهرة الاستبدال مثلها في ذلك مثل الهستيريا القلقية، غير أنها تختلف منها بكون الوجدانات المكظومة تتحول عادة إلى فكرة أو عقيدة ثابتة متسلطة بدلا من تحويلها إلى مخاوف عصبية أو انفعالات وتأثرات نفسية. كما أن هناك فرقا آخر بين الظواهر العصبية القهرية،

وبين كل من الهستيريا التحويلية أو القلقية وهو أن النزعات المكبوتة فيها تكون من النوع الإيجابي الاعتدائي؛ بمعنى أنه إذا حللت ذكريات المريض بالهستيريا التسلطية، فإنها قد تكشف عن سابقة قيامه في عهد الطفولة بدور المهاجم أو المعتدي. بينما النزعات المكبوتة في النوعين الآخرين من الهستيريا "التحويلية والقلقية" تكون من النوع السلبي؛ حيث باستقصاء تاريخ حياة المريض قد يستدل على سابقة قيامه في عهد الطفولة بدور المجني عليه، ولهذا كانت الهستيريا التسلطية أكثر شيوعا بين الذكور والهستيريا التحويلية أكثر شيوعا بين النساء.

أما فيما يختص بالإجراءات العقلية الباطنية التي بمقتضاها تتم عملية الاستبدال وتتكون الظواهر المرضية في الهستيريا التسلطية، فهي بعينها نفس الإجراءات التي مر بنا ذكرها عند الكلام على الهستيريا القلقية. أعني أن هذه الظواهر، هي نتيجة النضال والصدام الواقع بين القوتين المتعارضتين من قوى النفس، غير أنه بسبب ما اعترى القوى الرادعة – قوة الكبت – من وهن أو ضعف تتحول التأثرات أو الانفعالات الخاصة بالرغبات المكظومة إلى أعراض فكرية مرضية في صورة عقائد أو أفكار أو سلوك أو حالات متسلطة، وبذلك يتسنى تفادي ظهور تلك الرغبات في الشعور بشكلها الصريح؛ فهي وسيلة من وسائل الدفع ضد القوة المحتسبة لما يكنه المريض في أعماق نفسه من نزعات أو مشتهيات يرى في تحقيقها خطرا على نفسه أو بعبارة أصح خطرا على ذاته الشعورية "أنا".

أما طبيعة الهواجس المتسلطة التي تلازم المريض بهذا النوع من الأمراض النفسية فإنها متعددة الصور لا حصر لها؛ فقد تكون فكرة معينة تساور المريض في كل وقت ولحظة، أو حالة تقوم بنفسه لأقل مناسبة بكيفية قد تقلق باله وتزعج خاطره. ومع يقينه بأنها عارض مرضي وفكرة وهمية لا تقوم على أساس من العقل أو المنطق، فإنه لا يجد من نفسه حولا ولا قوة على طردها من مخيلته فهي من هذه الناحية مثلها مثل الظاهرة البدنية التي استقلت عن إرادة المريض في الهستيريا التحويلية وغلبته على أمره وأصبح لا سلطان له عليها. ومن رأي فرويد أن الهستيريا التسلطية تنطوي بلا استثناء على وجدانات لوم وتأنيب ذاتي صحبت ممارسة جنسية في عهد الطفولة تعذر كبتها كبتا موفقا فالتمست لها مخرجا في الحياة باستحالتها إلى أعراض تفكير قهري بصورة نمطية أو فكرة ثابتة متسلطة فقد تبرز هذه الظاهرة في صورة نزعة مرضية إلى حب الاستطلاع حيث تغلب على المرء فكرة الاستفهام عن كل أمر يقع تحت سمعه أو بصره أو بمجرد خطوره بباله، فلا يجد من نفسه قدرة على كبح شهوة الاستطلاع حتى تجاه الأمور وأسخفها سواء أكان ماديا أو معنويا. وقد يكون ذلك في صورة استفهام موجه إلى الغير أو منقلبا نحو النفس؛ فتسود المريض حالة قلق وعدم اطمئنان لعدم اقتناعه بالجواب.

وقد تتخذ هذه الظاهرة صورة تشكك أو تردد دائم، وهو ما يعبر عنه أحيانا بهوس للشك، فمثل هؤلاء المرضى تسود عقولهم ظاهرة التشكك أو التردد في كل أمر أو شأن من شؤون الحياة، فلا تطمئن

أفئدتهم أو تستقر أراؤهم على رأي حتى في أتفه الأمور وتلقاء أبسط المواقف. فيشاهد المريض حائرا في اختيار الموضع الذي يضع فيه كتابا داخل المكتبة أو المكان الذي يضع فيه كوبا أو آنية على المائدة أو في اختيار البدلة التي يفضل ارتدائها قبل خروجه لزيارة أو نزهة، أو يحار فكره تجاه المكان الذي يمضي فيه ساعة فراغه، أو قد يحار في تكوين رأيه بأي القدمين يبدأ ليس جوربه أو حذاءه، أو بأي قدم يخطو عتبة الدار. كما أن هناك أناسا يساورهم الشك عند وضع الخطابات في مظاريفها فيعمدون إلى فتحها مرارا للتثبت من عدم وقوع خطأ عند تظريفها باستبدال بعض الخطابات مكان البعض ولعل هذه الظاهرة، وهي كثيرة الشيوع لدى هؤلاء المرضى حتى بين الأصحاء ولو بصورة مخففة، تدل دلالة ضمنية على ظاهرة الاستبدال التي انفصلت بموجبها التأثرات الخاصة بالرغبات الجنسية المكظومة عن مركباتها، ثم اتصلت بغيرها من شؤون الحياة العادية. بمعنى أن فكرة الاستبدال المادي المتسلطة في الظاهر تعبر تعبيرا رمزيا عن ظاهرة الاستبدال المعنوي القائمة في الباطن، وقد تتخذ الفكرة المتسلطة صورة مخاوف قد يلبس أمرها ويتعذر تمييزها لأول وهلة عن المخاوف الهستيرية التي بر بنا ذكرها في الهستيريا القلقية

"ولعل هذا مما حدا ببعض رجال فن العلاج النفسي إلى اعتبار المخاوف إطلاقا ضمن الظواهر العصبية القهرية دون تمييز بين النوع القلقي منها والنوع التسلطي"

غير أنه عند التأمل وإمعان النظر نرى أن هناك فروقا جوهرية بين كلا النوعين تتلخص في الأوجه الآتية:

أولا: إن المخاوف الهستيرية "الفوبيا" تتخذ صورة رعب تجاه شيء معين بالذات، أو موقف محدود يثير من النفس عوامل الخوف دون سواه لسابقة ارتباط الذهن بموقف مماثل بروابط التداعي في ممارسة ماضيه فهي عبارة عن اضطراب نفسي نوعي بخلاف المخاوف التسلطية فإنه عرضة للتطور والتنقل، فقد تساور النفس فكرة خوف من ناحية معينة أو موقف معين، ثم يختفي هذا العارض إلى حين على أن يظهر في المستقبل في صورة أخرى، بمعنى أن المريض قد تتسلط على نفسه انفعالات الخوف من أن يلقي بطفله الصغير من النافذة كلما اقترب منها، ثم تختفي هذه الظاهرة حينا من الزمن على أن تحل محلها ظاهرة خوف من ناحية الأسلحة والسكاكين التي تقع عليها يد المريض خشية أن يذبح واحدا من أولاده أو أهله، أو قد تحل محلها ظاهرة خوف من أن يلقي بنفسه تحت عجلات القطار إذا ما اقترب منه حال مروره فتراه يتراجع القهري بضع خطوات لكي يكون في مأمن من شر نفسه على نفسه.

ثانيا: إن المخاوف التسلطية قد تدفع نفسها إلى المخيلة دون أن يكون لها في الحياة الخارجية محرك ظاهر أو ما يدعو إلى إيقاظها، فهي أقرب إلى التفكير التلقائي منها إلى التأثرات السلبية التي توقظها في النفس المنبهات الخارجية عن طريق التداعي كما هي الحال في الهستيريا القلقية. فالمريض بالمخاوف التسلطية قد تساور نفسه فكرة الخوف من

الانتحار أو فكرة الاعتداء على الغير أينما ذهب وأينما جلس، دون أن يكون لإيقاظ هذه الفكرة في نفسه أية علاقة صريحة بالمؤثرات الخارجية أو ما يجعل تنبيهها متوقفا على عامل معين في الخارج؛ فهي ظاهرة نفسية متعدية، بخلاف المخاوف التي من نوع الهستيريا القلقية فإنها ظاهرة نفسية لازمة أو قاصرة.

ثالثا: أنه في المخاوف التسلطية إذا حللت ذكريات المريض المكبوتة فإنها تكشف عن ممارسة جنسية اعتدائية، بخلاف المخاوف العصبية في الهستيريا القلقية فإنها تنطوي على ممارسة جنسية قام بها المريض بدور المعتدى عليه.

رابعا: إن المخاوف التسلطية تدور غالبا حول خوف المريض من نفسه أو من نزعه باطنية ذات خطر، بينما في المخاوف الهستيرية يكون مصدرا لخوف عامل من عوامل البيئة الخارجية، ومؤثر خارجي يثير خوف المريض. وقد تبرز الأفكار المتسلطة في صورة أعمال أو تصرفات يقوم المريض بها كلما تهيأت ظروف خاصة فلا يجد في نفسه قدرة على كبح جماحها أو العدول عنها، ولكن ليس هذا معناه أن الوجدانات المكبوتة تحولت إلى ظواهر بدنية، وإنما التحول الحاصل لا يزال في مستوى العقليات، وإنما ما يقوم به المريض أو يأتيه من الأفعال ما هو إلا نتيجة طبيعية لتلك الأفكار والأوهام المتسلطة؛ فمثلا من ضمن حالات هوس الشك التي مر ذكرها حالة تسود فيها عقلية المريض ظاهرة التشكك من ناحية إحكام إغلاق باب المنزل أو باب غرفة النوم، فإن قيام هذه الحالة

بنفس المريض من شأنها أن تدفعه إلى اختبار قفل الباب مرارا وتكرارا، كما أن هناك حالة أخرى يسودها التشكك من عدوى المرض "وهذه الحالة خليط بين الشك والخوف"، فإنها تدفع المرضى بهذه الفكرة إلى تطهير أيديهم أو ملابسهم أو أمتعتهم إذا ما خطر ببالهم أنها تعرضت للعدوى بلمسها من جانب الغير، وقد تبرز هذه الفكرة المتسلطة في صورة خيالات بصرية أو هواجس سمعية تشبه الهذيانات التي تساور المرضى بمرض العقائد الوهمية المعروف باسم "بارانويا" أو بالمرض المعروف باسم "عتة المراهقة"، ولكنها تختلف عنها من حيث كون المريض بالهستيريا التسلطية ما هو إلا مجرد أوهام أو خيالات لا ظل لها من الحقيقة، غير أن ذلك لا يمنع –إذا ما استفحلت أغراض العلة – من أن تنتهي بالمريض إلى هذيانات حقيقية.

وليست الأفكار المتسلطة وقفا على مرضى النفوس بل قد نشاهد أعراض هذه الظاهرة في الحياة الطبيعية لدى الكثيرين من الأصحاء إنما بصورة مخففة، فهناك من الناس من تغلب عليهم فكرة التردد في تكوين آرائهم عند الإقدام على أمر من الأمور، وربما كان رجال القضاء أكثر الناس تعرضا لهذه الظاهرة من سواهم، حيث يوجد من بينهم عدد غير قليل قد تسود عقليته نزعة التشكك والحيرة عند تكوين رأي قانوني أو إصدار حكم من الأحكام، ومثل هذا القاضي يعرف في الأوساط القضائية بالقاضي الموسوس أو المتردد. ويعزى سبب تردده إلى الإفراط في نزاهة الضمير ودقة الوجدان، في حين أنها وجدانات دفينة تستمر في

قرارة النفس فتعكس حرارتها على حياتنا الشعورية، وتصبغ تفكيرنا ومظاهر سلوكنا بصبغة الشك والتردد الذي هو رمز الخوف من الوقوع في الخطيئة والتورط في المعصية المكظومة في أعماق اللاشعور.

كما أن هناك من الناس من إذا غلبوا على أمرهم في الحياة وتخطاهم الغير في مضمار التنافس والكفاح وتعطشت أنفسهم إلى تذوق لذة النجاح، كظموا شهوة الغلبة والتفوق على الغير في ميدان العمل، ثم أخذوا يلتمسون لها مخرجا في ميدان الوهم والخيال، فمثل هؤلاء قد تغلب عليهم فكرة المنافسة حال السير في الطرقات فتدفعهم إلى مسابقة المارة أو إلى بلوغ نقطة معينة قبل أن يبلغها عابر سبيل أو قبل أن تصل إليها دابة أو مركبة.

وهناك من الناس من يجد من نفسه دافعا يدفعه حال مروره في طريق مرصوف بالبلاط، أو كوبري ملوح بالأخشاب إلى أن يطأ بقدمه البلاط أو الخشبة الثانية أو الثالثة. كما أن البعض قد يجد من نفسه ما يدفعه إلى أن يقذف بقدمه كل قطعة حجر يقع عليها بصره في الطريق، أو يفقأ بقدمه كل صدفة أو ودعة يمر بها حال سيره على شاطئ البحر، كما قد تغلب على بعض الناس نزعة عد كل ما يصل إلى أيديهم او يقع تحت أبصارهم من الأشياء، وما إلى ذلك من الظواهر التي ملئت بها حياتنا العملية والتي لا سبيل الى إحصائها أو حصرها.

وكثيراً ما تكون الظاهرة المرضية للفكرة المتسلطة معقدة التركيب تشترك في تكوينها مجموعة من العناصر أو المركبات النفسية المكظومة، كالمركب الوالدي (أوديب) ومركب الميل لذات الجنس ومركب العرض أو كشف العورة

وقد أورد الدكتور بوز فيلد في كتابه مبادئ التحليل النفسي حالة مريض كان يعالجه من ميل من والدته إلى إعطائه حقناً شرجية من حين لآخر، وكان مظهره الخارجي وشكل لباسه يدلان على نزعة قوية الى العرض وكشف البدن، وقد اعترف بنزعة جنسية شديدة إلى ذات الجنس كانت غالية عليه في سن المراهقة، حيث لم يكن وقتئذ يشعر بأية عاطفة أو ميل للنساء، ولكنه استطاع كظمها بعد ذلك الحين، وقد أصيب أخيراً بالبواسير، فكان لها شأن في إيقاظ مركب الشبق الشرجي من نفسه، وبالأخص عند فحصه بمعرفة الطبيب، وهو مما دعاه الى التهرب من إجراء عملية جراحية، وأن يفضل عليها المروخات والزيوت واستعمال الحقن التي كانت تعطيها له أمه وهو في سن الرابعة، وقد دلت حالة الفتى على شدة تعلقه بذكريات الماضي وتركيز نشاطه الغريزي في أمه تركيزاً قد ارتبط في ذهنه بشهوته الشرجية.

ويقول الدكتور بوزلفيد: لعل هذا هو السبب في كبته نزعته الى ذات الجنس، وفيما كان بيديه من الاحترام الزائد نحو السيدات احتراما يتمثل في المبالغة في الانحناء أمامهن، كما كان يفعل تجاه أمه (ويلاحظ

أن الانحناء، هنا ليس مجرداً عن المغزى إذ له صلة بانحنائه القديم عند إعطائه الحقن).

وقد تبرز الظواهر العصبية القهرية في شكل نزعة متسلطة نحو الحريق، وهو ما يطلق عليه اسم (بيرومانيا) أو جنون الحريق، حيث يجد المريض من نفسه دافعاً قهرياً يدفعه إلى اللعب بالنار، وقد تنتهي محاولاته إلى ارتكاب الحريق فعلاً والحكم عليه. كما قد تتخذ صورة نزوع إلى السرقة فلا يجد من نفسه قدرة على كبح جماح شهوة نفسه نحو اختلاس متاع الغير، وتسمى هذه الظاهرة (جنون السرقة)، فكلتا الظاهرتين لا تخرجان عن كونهما مظاهر مرض الأفكار المتسلطة التي لا اختيار للمريض فيها، ولا حول له ولا قوة على صد تيارها، فهي مركبات نفسية انفصلت عن مركز الإرادة واستقلت بقوة ذاتية جامحة لا يملك المريض لها قياداً أو زماماً. ولا فرق في المسؤولية بين ما يقوم به المريض بالهيستيريا التشنجية من تقلصات أو حركات تشنجية لا إرادية، وبين ما يقوم به المريض بجنون الحريق، أو جنون السرقة من محاولات إجرامية؛ فإذا عرفنا حقيقة ما يخضع له مثل هؤلاء المرضى من عوامل نفسية قاهرة وما لها على نفوسهم السقيمة من قوة بأس وسلطان، كان الطبيب أولى بهم من القاضي، وكانت إجراءات التحليل النفسي أجدر بشفائهم من إنزال العقاب بهم وايداعهم غياهب السجون.

الأوهام الهستيرية :

إن هذا النوع من الهستيريا القائم على الأوهام المتسلطة يمكن اتخاذه كمقدمة لمرض العقائد الوهمية المتصلة المعروفة باسم البارانويا الحقيقية، وهذا النوع من الهستيريا يشبه بقية أنواع الهستيريا التي تقدم ذكرها من حيث منشأ العلة وتكوين الأعراض، فإنها قائمة على نظرية الكبت المرضي لما يجعله المريض في جمعية العقل الباطن من أفكار ومؤثرات يجدها فوق حد الطاقة والاحتمال، فتتحول إلى أعراض مرضية في صورة معتقدات وهمية متسلطة، غير أنها تمتاز عن جميع الأمراض المتقدمة بتوافر الظاهرة المعروفة بالانعكاس، وهي ظاهرة من مقتضاها أن يلقي المريض ما يجده في نفسه من نزعات أو رغبات مكظومة على سواه. فالمريض بهذا النوع من الهستيريا لا يرى في نفسه عيباً، كما أنه قد لا يشعر من نفسه بوطأة الأوهام المتسلطة على عقله بأي عرض جثماني، فكل ما يحس أو يشعر به عيوب وهمية يراها في الغير، وبعبارة أخرى أن الأفكار المتسلطة في هذه الحالة تكون منعكسة على مرآة الغير، فعوضاً عن أن يحس المريض بها من نفسه (كما في هستيريا الأفكار المتسلطة) فإنه بحس بها في سواه، ويعتقد أنها من بضاعة الغير.

وكثيراً ما يشكو هؤلاء المرضى من مرئيات وهمية أو هواجس سمعية، كما قد يحصل في الهستيريا التسلطية. ولكن المريض بالأوهام الهستيرية يعتقد عادة في صدق ما يرى أو يسمع فهي بالنسبة له حقائق

لا أوهام. كما أن الأوهام في هذا النوع من الهستيريا يغلب فيها السمعيات أكثر من المرئيات، وإن أظهر الأعراض وضوحاً في الأوهام الهستيرية هي أوهام المريض وهواجسه المتعلقة بغيره من الناس، فقد تتسلط عليه فكرة اضطهاده من جانب الغير. أو تسود حياته العقلية هذيانات عشقية، أو نزعة شديدة إلى الغيرة والحقد والحسد. أو إلى الخيلاء والعظمة وفرط الاعتداد بالذات، فإذا ما استفحلت هذه الأعراض، فإنها قد تتقلب إلى (بارانويا) حقيقية، فيصبح المريض فريسة نزعات إجرامية موجهة نحو الشخصيات التي لها شأن يذكر في مخيلته، فيضمر لها حفيظة قد تؤدي إلى ارتكاب القتل.

ويقول رجال التحليل النفسي إن معظم حالات هستيريا العقيدة الوهمية (إن لم يكن جميعها) ينطوي على نزعة جنسية شديدة من الميل إلى ذات الجنس، ولو أن المريض قد يجهلها من نفسه كل الجهل، وقد حاول ستودارت من رجال التحليل النفسي أن يصور الإجراءات الباطنية لظاهرة الانعكاس في هذا النوع من الهستيريا على اختلاف مظاهرها، فوضع لها الصور الآتية:

أن المريض بالبارانويا تبدأ لديه الاجراءات الباطنية (مفترضا أنه رجل) بأن تقوم أولا بنفسه الصيغة الآتية:

(أنا أحب الرجل) وظاهر أنها نزعة ميل إلى ذات الجنس. فهذه الصيغة تتحول إلى واحد من الفروض الآتية طبقاً لنوع البارانويا أو النزعة التي تغلب عليها

أولاً ـ في البرانويا الاضطهادية :

(أنا أحب الرجل) وهو أول خاطر يرد على البال، ولكن نظرا لأنه فوق حد الاحتمال، فإنه ينقلب في الذهن إلى الضد، أعني (أنا لا أحب الرجل أي أنا أكرهه) غير أن هذه الصيغة لا تلبث عن طريق ظاهرة الانعكاس أن تنقلب إلى الصيغة الآتية (هو يكرهني)، إذن أنا مضطهد من جانبه؛ ومن ثم تنشأ العقيدة الاضطهادية الوهمية.

ثانياً ـ في بارانويا الخيلاء :

(أنا أحب الرجل) غير أنه نظرا لكون العقل لا يهضمها، فإنه تنقلب إلى الصيغة الآتية (أنا لا أحب الرجل، أنا أحب نفسي) ولكنها لا تلبث عن طريق ظاهرة الانعكاس أن تنقلب إلى ما يأتي (كل إنسان يحبني، إذن أنا رجل عظيم)

ثالثاً ـ في بارانويا التدين:

(أنا أحب الرجل) أو بعبارة أخرى (أنا أحبه) (وهو ما لا يطاق) ولهذا يتحور معناه إلى (أنا أحبه (هو)) والضمير هنا عائد على الخالق

أعني (أنا أحب الله) وهذه العبارة عن طريق الانعكاس تنقلب إلى (إن الله يحبني) وبناء على هذا (إن الله اصطفاني)

رابعا ـ وفي البارانويا العشقية :

(أنا أحبه) تنقلب إلى (أنا لا أحبه بل أحبها) وهذه عن طريق الانعكاس تنقلب إلى (هي تحبني أو تعشقني)

خامسا ـ وفي بارانويا الغيرة :

(أنا أحبه) ثم إلى (هي لا تحبني، بل تحبه)

سادسا ـ وفي بارانويا المرض :

يبدأ الإجراء العقلي كما في بارانويا الخيلاء (أنا أحبه) ثم تتحول إلى (أنا لا أحبه – أنا أحب نفسي– يجب العناية بنفسي)

ومما تقدم يرى أن الأوهام الهستيرية على تعدد صورها وأشكالها قائمة على ظاهرة الانعكاس، وأن هذه الظاهرة تعد من أقوى مميزات هذه العلة عن سواها من مجموعة الأمراض العصبية النفسية التي مر بنا ذكرها، كما تمتاز بها عن المرض المعروف بعته المراهقة الذي تسوده ظاهرة تسمى ظاهرة الاندماج، والتي جاء من مقتضاها أن يدمج المريض كل ما يحيط به من الموجودات في نفسه، ثم يقطع صلته بعالم الحقيقة ويسبح في عالم من الأوهام والخيالات.

وقبل أن نختم الكلام على الأمراض العصبية النفسية تجدر بنا الإشارة إلى وسائل علاج هذه الأمراض، وهذه الوسائل تتلخص إجمالا في أمور ثلاثة تعد بحق الوسائل الرئيسية لعلاج الأمراض النفسية بصفة عامة، وهي: التحليل النفسي، والإيحاء، والتنويم.

أما من حيث التحليل النفسي فإن رجال العلم مجمعون على أنه أنجح وسيلة لمعالجة الأمراض العصبية النفسية على الإطلاق، والعلامة فرويد (وهو رب التحليل كما يقولون) يرى أنه العلاج الوحيد الناجح في شفاء هذه المجموعة من الأمراض، لا يفضله أي علاج آخر، إذ من شأنه أن يستأصل شأفة العلة من منبتها وجذورها، وهو أشبه شيء بعملية فتح البطن لشخص مصاب بخراج باطني أو بعلة أو مرض عضال في الداخل، ولا يعتبر العلاج بالتنويم المغناطيسي أو بالإيحاء إلا كمجرد وسيلة وقتية لتسكين الأعراض تسكينا سطحيا دون تناول أصل العلة من أساسها، مثل المخدر الذي يسكن آلام الداء الدفين ولكن إلى حين، غير أن هناك من جهابذة العلم وأبطال التحليل من خالفوا ذلك الأستاذ العظيم الرأي، وقالوا بإمكان شفاء طائفة من الأمراض النفسية عن طريق التنويم شفاء ناجحاً وبصفة خاصة الهستيريا التحويلية، مستندين في ذلك إلى ما أبدته تجاربهم واختباراتهم الشخصية. وإني بهذه المناسبة أذكر أني وفقت مرة إلى شفاء مريضة بنوبات هستيرية تشنجية ثقيلة الأعراض عن طريق التنويم في بعض جلسات لم تزد عن ثلاث أو أربع (ولعل هذا

من قبيل المصادفات) وكان ذلك في عام ١٩٢٥ ولحسن الحظ لم تعاودها الأعراض حتى الآن.

كشف الجرائم والسيكلوجية الحديثة

آثار الانفعالات النفسية يمكن تعريفها بأنها هي الأعراض التي تبدو على الأعضاء الظاهرة أو الباطنة لجسم الانسان بسبب عامل من العوامل التي تؤثر في تلك الأعضاء تأثيراً خاصا، كالسرور والحزن والغضب والخوف: التهيج Excilesment والهبوط وغيرها، فكل حالة من هذه الحالات لها تأثيرها الخاص في المجموع العصبي وبجملته جهاز الحركة، وقد دلت الخبرة على أن حالتي السرور والحزن وهما إجمالا الحالتان الرئيسيتان اللتان تتفرع عنهما معظم الحالات الأخرى لهما نتيجتان عكسيتان من حيث التأثير في أعضاء الجسم، وأعراضهما متضادة، فحالة السرور تزيد في مدى الحركات الخارجية وتجعلها أكثر من المعتاد، وتقلل من مدى الحركات الداخلية وتجعلها أقل من المعتاد، بخلاف حالة الحزن فإنها تؤدي إلى عكس ذلك أي إلى إضعاف الحركات الخارجية وتقوية الحركات الداخلية، بمعنى أن حركة الانبساط تقل وحركة الانقباض تزيد أكثر من المألوف.

وإنه لمما يوجب الحيرة معرفة العلة الأساسية لهذه الظواهر العضوية المتباينة فقد يسأل الإنسان نفسه لماذا تولد حالة السرور. انتشارا في عضلات الجسم وأعضائه، وحالة الحزن والكآبة تولد فيه قبضاً وانكماشاً؟ ولماذا لا يكون الأمر معكوسا؟ ولكن في اعتقادي أن

هذا اللغز يسهل حله إذا كنا نسلم بصحة قانوني (الوراثة) و(النشوء والارتقاء) فإن هذه المظاهر المتباينة قد ورثناها عن جدتنا الأولى في عالم الأحياء، وهي الخلية البسيطة منشأ الكائنات الحية ويحملها الإنسان فهي صفات غريزية في الإنسان والحيوان من مبدأ خلقهما حتى الآن.

ولكن الاقتناع بذلك يقتضي منا تسليما بتوافر غريزة أودعها الله في نفس كل كائن حي منذ القدم وهي غريزة حب البقاء، وأن جميع أعمال الإنسان والحيوان ومقاصده ترمي إلى هذه الغاية، حتى أن الميل الجنسي، وكل ما يتفرع عنه مرجعه إليها، لأن القصد منه التناسل أي بقاء النوع، فغريزة حب البقاء قد يتولد عنها كثير من العوامل التي ترمي إلى الغاية نفسها، ومن بين هذه العوامل ميل الكائن الحي إلى السعي لتحصيل قوته، من البدهي أن هذا السعي يتطلب منه البسط والانتشار، بعكس عامل الخوف أو الفزع، فإنه يدعوه الى الانكماش والتقلص، وهذه الظواهر التي تشاهد في الأحياء الراقية تشاهد في الأحياء الدنيئة حتى في أبسطها تركيبا مثل الأميبا (Amoeba)، فبعمل التجارب على هذا الكائن الحي الدقيق بوضعه تحت عدسة الميكروسكوب يلاحظ أنه يتأثر بالمنبهات، فإذا وخز بسن حاد كسن الإبرة أو مس سطحه بسائل كاو أو حريف، أو سلط عليه تيار كهربائي شديد، أو قرع بجسم صلب على اللوح الزجاجي الموضوع عليه الحيوان يتقلص وينكمش في الحال ويأخذ شكلا كرويا، كمن يريد أن يجمع كل قواه المنتشرة ويلم شتات

أطرافه في نقطة ارتكاز واحدة يتخذها مركزا للدفاع أو لمواجهة الخطر المحدق به، وبالعكس من ذلك إذا لامسه سائل مغذ فإنه ينبسط وتظهر أطرافه وتقشر بقصد التهام العناصر المغذية التي بداخل ذلك السائل وهضمها، ويسمى النوع الأول من المنبهات وهو الذي يدفع الخلية إلى التقلص أو التكور (بالمنبه المنفر) والنوع الثاني الذي ينبهها إلى البسط والانتشار (المنبه الجذاب)، وهذه التجارب معروفة لكل باحث فزيولوجيوبيلوجي.

وقد تشاهد هذه الحالات بوضوح في بعض الحيوانات ذات الخلايا المتعددة ولو كانت من النوع المنحط كالديدان والحشرات والحيوانات ذات الأصداف والدروع الطبيعية كالمحار والقواقع فإنها بمجرد اللمس تتقلص وتنكمش أو تتكور أو تهرع إلى أصدافها ودروعها، وبالعكس إذا صادفت ما تستطيعه أو تلتذه فإنها تنفرد وتنتشر وتفتح أصدافها وتبرز منها، وقد نفسر بهذا ما نسمعه أحيانا ونعده من قبيل الأساطير والخرافات من أن زيدا من الناس اجتذب إليه الوحوش بقيثارته أو الطيور بصفيره أو الثعابين بمزماره، فإن السرور أو الطرب يجتذبها إلى مصدره، في حين أنها تفر من الألم وتهرع إلى أوكارها وتنكمش فيها خوفا ورعبا.

وكما أن الكائنات الحية من أول الخلية البسيطة إلى أرقاها نوعا، وهو الإنسان، يجذبها السرور إلى مصدره وينشرها وتنفر من الألم وتفر من وجهه، وكذلك عضلات الجسم وأنسجته وخلاياه خاضعة لنفس هذه

المؤثرات، فلو عرض سطح عضلة من العضلات لسائل حريف أو كاو أو شديد البرودة أو الحرارة أو وخزت بآلة مدببة أو سلط عليها تيار كهربائي قوي انكمشت العضلة وتقلصت حتى ولو بعد قطع العصب المحرك (لكي لا يكون هناك شك في أن للفعل المنعكس دخلا في تقلصها) أما لو وضع عليها سائل مغذ لذيذ وعلى درجة من الحرارة معتدلة، أو دلكت دلكا لطيفا انبسطت العضلة وانشرحت

ولا أظن أني أكون مخطئا إذا ما قلت أن كلمة (انبساط) التي يستعملها عامتنا للتعبير عن حالة السرور ما هي إلا كلمة بليغة المعنى منطبقة تماما على تلك الظاهرة الطبيعية التي أيدها العلم الصحيح حتى في أبسط الأحياء تركيبا وأدقها حجما، فلننظر كيف يفعل بنا السرور؛ فإنه يحملنا على بسط أيدينا وأرجلنا وسائر أعضائنا، وكثيرا ما نشاهد الصبي عند الفرح يصفق بيديه مبسوطتين، ويطوح برداء رأسه نحو السماء طربا، ويفتح شدقيه بالصياح والتهليل، ولننظر كيف يفعل بنا الحزن أو من الانقباض والانكماش وتقلص العضلات.

أليس لكل منا خبرة بما يعتري الإنسان عند رؤية الأشباح المخيفة أو سماع الأصوات المزعجة لو لمس الأجسام الغريبة في الظلام من قشعريرة خاصة في البدن أو انقباض في الجلد يقف منه الشعر أحيانا، وخفقان في القلب واضطراب في حركة التنفس وامتقاع في لون البشرة وبرودة في الأطراف وما ذلك إلا لكون رؤية الشبح المخيف أو سماع الصوت المزعج أو لمس الجسم الغريب.. كلها عوامل نفذت عن طريق

الحواس (البصر أو السمع أو اللمس) إلى المخ فأيقظت فيه ذكرى مخيفة فتظهر في الحال آثار الانفعالات في الإنسان.

فإذا سلَّمنا بهذه الطريقة التي تدل على صحتها وتؤيدها الشواهد الكثيرة في حياتنا اليومية، أمكننا أن ندرك دون صعوبة سر انكماش عضلات الجسم في حالة الخوف وانبساطها في حالة السرور، فهي غريزة ورثناها عن جدتنا الخلية من بدء خلقها في العصور الأولى وحملتها إلينا سفينة الوراثة مع ما تزودته في مراحلها من ثمرات الأجيال الغابرة وهي تمخر عباب الدهر جريا على سنة النشوة والارتقاء وما زالت ممثلة في الخلايا الكثيرة التي تتألف منها مجموعة أجسامنا البشرية حتى الآن.

غير أن المؤثرات النفسية قد تكون مباشرة، كوقوع حادث فجائي يصطدم بالحواس فينبه مركز الحركة من المجموع العصبي فتبدو آثار الانفعال الخاصة بكل حادث على حسب نوعه، وقد يكون التنبيه بطريق غير مباشر بتنبيه مركز الحركة بواسطة الذاكرة أو المخيلة، عندئذ تظهر آثار الانفعال النفساني على أعضاء الحركة بنفس الصورة التي ألفها الإنسان واعتادها من قبل في مثل هذه الأحوال، أو بعبارة أخرى أن الانفعالات قد يكون مصدر التنبيه فيها إما خارجيا: كأن يطرق عامل الخوف أو الخزن أو السرور باب الحواس فيوقظ مركز الحركة وهو يدفع الأعضاء الى العمل، وإما باطنيا بأن يقع التنبيه على المركز العصبي للحركة من الداخل مباشرة بوساطة عامل نفساني باطني، كذكرى حادث

مؤلم أو مخيف أو محزن أو سار، فتظهر على الأعضاء نفس الأعراض الخاصة بكل عامل من هذه العوامل.

ولأجل تقريب ذلك الفهم يمكن من قبيل الغرض تشبيه الحوادث أو ذكرياتها بالتيارات الكهربائية، وتشبيه الأعصاب بالأسلاك الموصلة للتيار، ومركز الحركة سواء كان من المراكز الواقعة في المخ أو في الحبل الشوكي بالمحرك (الدينامو) والحافظة نوعا ما تخزن فيه السيالات الكهربائية للحوادث عند وقوعها كما تحفظ القوى الكهربائية في البطاريات المعروفة بالمكثفات، فإذا وقع حادث ما واصطدم بإحدى الحواس الخمس كحاسة اللمس مثلا التي تكون بمثابة أحد قطبي الاتصال، يمر السيَّال الكهربائي (بأعصاب الحس) ومنها الى مركز الحركة (الدينامو) فيتنبه المركز المذكور ويقوم بأداء وظيفته وهي تحريك الأعضاء المسلط عليها ذلك المركز ويدفعها الى الحركة بواسطة الأعصاب المحركة.

فإن كان الحادث مزعجا أو منفرا قامت الأعضاء المخصصة للدفاع عن الجسم بواجبها، وإن كان جذابا أو محرضا تولدت فيها الحركات الخاصة بالتعدي أو الهجوم، وإن كان سارا بدت على الكائن الحي علامات السرور والانشراح، وإن كان محزنا بدت عليه آثار الكآبة والانقباض وهلم جرا.

ولكن مثل هذه الحوادث لا تمر عادة من غير أن تترك صورة خالدة في الذاكرة، وهي حكمة أودعها الخالق سبحانه وتعالى في نفس المخلوق لكي يتخذ له منها عبرة وموعظة، ولكي تكسبه في مستقبل حياته خبرة نقية شر الوقوع في الخطأ أو الاندفاع الى مواضع الخطر مرة أخرى. فإذا ما لمس الطفل النار مرة ولدعته رسخت هذه الذكرى المؤلمة في ذهنه لكي لا يلمس النار مرة ثانية، فإذا وقع بصره عليها ولو عن بعد تنبهت لديه ذكرى الألم، بل ربما تقلصت عضلات جسمه في موضعها السابق فلا يقربها، ولعل الكثير منا لاحظ كيف تتقلص عضلات المعدة ويعتريها الهرع والغثيان قد يعقبهما قيء أحيانا بمجرد وقوع بصرنا على دواء أو شراب علمنا بالخبرة أنه كريه الطعم، بل ربما كان مجرد تذكرة كافية لدى البعض منا لإحداث هذه الأعراض.

فما تقدم يتبين لنا كيف أن صور الحوادث تحفظ في المخ، وفوق ذلك فإن الشواهد كلها تؤيد أنها لا تحفظ فيه فقط لمجرد الحفظ بل تحفظ فيه بترتيب ونظام، كما لو كان لكل نوع منها مستودع خاص به يشحن من السيَّال الكهربائي لكل حادث حال مروره بالأعصاب واشتغال المحرك، وذلك حتى يسهل الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى الحكم على أمر من الأمور عن طريق الموازنة والقياس.

فإذا أوقظ في الذهن نوع من الخواطر أو الذكريات اندفع السيَّال الكهربائي من المستودع الخاص بذلك النوع إلى مراكز الحركة فيقوم هذا

بشحن أعضاء الحركة الخاضعة له، وهذا ما يعبر عنه بحسب الاصطلاح العلمي أو الفني بالدافع الذاتي.

إنما لا يفهم من ذلك أن هناك اتصالا دائما بين مستودعات الحوادث وبين المحرك لكي يكون التنبيه واقعا باستمرار على مركز الحركة، بل هذا الاتصال مقطوع كما لو كان في طريق الأعصاب الموصلة بينهما زر كهربائي قاطع للتيار لا يتصل إلا إذا عمدت يد عامل من العوامل المنبهة إلى وصله حتى لا يتحمل الإنسان في حياته أوجاع مصائبه بغير ضرورة أو مقتضى، ولا ينوء تحت عبء ما يتحمله في ذاكرته من مجموعة آلامه وأوصاله التي انتابته في ماضي العمر.

فإذا ما ضغطت يد العامل المنبه (زر) الاتصال، اتصل التيار وانطلق من المستودع بعض الشحنة إلى مركز الحركة، وعندئذ تتكرر الانفعالات الخاصة بهذا النوع من الحوادث في صورة قد تكون مخففة نوعا مما لو كان الحادث محققا كما لو كانت المكثفات فقدت بمرور الزمن جزءا من قوة كهربائيتها.

وإني لا أبغي أن ابتعد كثيرا عن جوهر الموضوع وهو ما للانفعالات النفسية من الارتباط بالجرائم فلم يحملني على هذا الإسهاب الذي قد يكون مملا إلا الرغبة في تعليل آثار تلك الانفعالات وردها إلى أسبابها الطبيعية حتى يمكننا فهمها علميا والاستفادة منها عمليا، ولكني قبل أن أنتقل إلى جوهر الموضوع أريد أن أدفع مقدما اعتراضا طالما سمعته من

الكثيرين، وهو أن المجرم الماهر المدرب الذي ماتت من قلبه كل عاطفة قد يستطيع استخدام كل ما أوتي من قوة في أن يخفي عواطفه فلا تبدو عليه آثار الانفعال.

أجل قد يكون من المبين عليه أن يخفى الآثار الظاهرة لحركاته وإرشاداته الخارجية أو يلطف كثيراً منها بحيث لا تبدو محسوسة، كما إنه ليس من المحتوم أن يبكي المرء عند الحزن أو يضحك عند السرور، ولكن لبست الأعين والشفاء والأيدي والأرجل هي التي تشهد علينا دون غيرها، فإن هذه التزمت الصمت وأصرت على الكتمان، فهناك أعضاء أخرى لا سلطان لإرادتنا عليها قد تكشف الستار بالرغم منا عن الرواية التي تمثل في مسرح المحيلة، وتتم عن تفاصيل المعركة التي تدور رحاها في ميدان الضمير، وكيفية ذلك أن في الجسم نوعين من الأعضاء من حيث الحركة فالنوع الأول تتألف منه الأعضاء ذات الحركة الإرادية أي الخاضعة في حركاتها لمركز الإرادة في المخ، كالأيدي والأرجل والشفاه والجفون والعيون وغيرها من سائر الأعضاء التي يمكننا تحريكها أو إيقاف حركاتها كما أردنا، والنوع الثاني يتألف من الأعضاء ذات الحركة غير الإرادية كعضلات القلب المبطنة لجدران الأوعية الدموية والعضلات والأنسجة الأخرى لبعض الأحشاء الصدرية والبطنية والحوضية، وكذلك غدد العرق والدمع واللعاب وغيرها من الغدد ذات الإفرازات المختلفة.

فالنوع الأول من الأعضاء خاضع في حركته لجهاز عصبي يختلف في نوعه عن الجهاز العصبي للأعضاء ذات الحركة غير الإرادية، ويسمى

الأول بـ "الجهاز العصبي الإرادي"، والثاني بـ "الجهاز العصبي الذاتي"، والأول مراكزه العصبية واقعة في منطقة الحركات الإرادية من المخ، والثاني مراكزه العصبية بعيدة عن مراكز الإرادة مقطوع الاتصال بها، ومعظم هذا الجهاز الأخير مؤلف من سلسلة من العقد العصبية واقعة على جانبي العمود الفقري (ومعروفة باسم العصب العظيم السمبتاوي) وبعض عقد أخرى كائنة في الدماغ، والبعض الآخر في جدران نفس الأعضاء المسلطة عليها هذه "المراكز" منها في القلب.

فالفرق بين هذين الجهازين جلي واضح من حيث التأثير في حركات الأعضاء، فإن كان في وسعنا أن نمنع أيدينا وأرجلنا عن الحركة أو إبداء أي إشارة تنم عما نبطن في نفوسنا، فمن الذي يستطيع منا أن يغير بإرادته دقات قلبه وسرعة نبضه ودرجة امتلائه وقوة ضغط دمه وكمية إفراز غدد من غدد جسمه أو حركات أمعائه أو أحشائه الباطنية أو درجة حرارة جسمه؟ فإذا كان ليس في وسعنا ذلك وعلمنا بالتجربة والمشاهدات أن لكل انفعال نفساني آثارا خاصة به ومميزات تسجلها علينا أعضاؤنا المتمتعة بالحركة الذاتية كما يسجل الترمومتر والبارومتر درجات الحرارة والرطوبة، وأن أمهر ممثلي العالم مهما بلغ من الدربة والحنكة لا يقوى على سترها وإخفائها. ألسنا نجني من وراء دراسة هذه الآثار وكشفها من أجل فائدة عملية؟ وأنه بقدر ما يوجد لدينا من الآلات المتقنة الصنع التي بها يمكننا رصد حركات الأعضاء الباطنية بدقة بقدر ما يسهل علينا كشف ما يجول بخاطر المتهم الموضوع تحت الاختبار

واستخراج مكنون أسراره. وإن آلات كهذه يكون مثلها كمثل المجهر الذي يكشف لنا أنواع الجراثيم ودقائق الأنسجة المختلفة للجسم في تشخيص الحالات المرضية؟

وقد أجرى علماء النفس تجارب عديدة بالطرق الفنية الصحيحة، فوجد بالاختبار أن لكل حالة نفسانية تأثرا خاصا على حركات التنفس والنبض والدورة الدموية وغير ذلك، بحيث إذا قيست تلك الحركات بدقة ودونت في شكل موجات بوساطة الأجهزة المخصصة لذلك والمعروفة لدى علماء الفيزيولوجيا أمكن بكل سهولة تشخيص الحالة النفسية المتسلطة على الشخص وقت الاختبار ومعرفتها بدقة، فلأجل قياس التنفس وضع جهاز يسمى البنوموجراف Pnoumograph وهو أسطوانة حلزونية من السلك مكسوة بغلاف رقيق من الكاوتشوك تربط على الصدر بحيث أن أقل حركة في التنفس تؤثر في طول الأسطوانة فتنكمش أو تنفرد بحسب حالتي الشهيق والزفير، وفي نهاية الأسطوانة أنبوبة رقيقة من المطاط وفي طرفها "ترمسة" مجوفة صغيرة من المطاط كذلك، وهذه يرتكز على أحد سطحيها ذراع صغير يعلو وينخفض مع سطح "الترمسة" عند انتفاخه أو انبطاحه تبعا لدرجة امتلائها بالهواء القادم من الأسطوانة عند انكماشها أو تفريغه منها عند انفرادها. وهذا الذراع الصغير مسدل على ذراع أطول منه بمثابة مؤشر أو عقرب طويل لكي يضاعف حركة الذراع الصغير ويكبرها حتى بذلك أخف الحركات كبيرة واضحة، والمؤشر أو الذراع الكبير تارة يكون مركبا على وجه لوح

مدرج لقياس حركات التنفس وتارة يكون طرفه مسلطاً على شريط من الورق ملفوف على أسطوانة ذات حركة آلية بطيئة منتظمة ويكون طرف المؤشر مغموساً في الحبر لكي يرسم على سطح الشريط الموجات الناشئة عن حركات التنفس من شهيق وزفير، وقد دل الاختبار على النتائج الآتية:

في حالة السرور يسرع التنفس ويصير خفيفاً (تأمل الضحك)

" " الحزن يبطيء " " عميقا (في التنهيد)

" " الغضب يسرع " " قويا

" " الهبوط يبطيء " " خفيفا

وتُعمل تجارب على النبض بوساطة جهاز معروف باسم سفجموجراف Sphygmograph وهو جهاز بني على نظرية شبيهة بنظرية البنوموجراف تقريبا، يركب فوق المعصم عادة، حساس لنبض الشريان الكعبري.

فوجد أن في حالة السرور يبطئ "النبض" ويصير قويا.

" " الحزن يسرع " " ضعيفا

" " الغضب " " قويا

" " الهبوط يبطيء " " ضعيفا

وهناك أيضا جهاز يسمى "بالبنتموجراف" Plethysmograph لقياس مقدار توارد الدم في عضو من الأعضاء وهو عبارة عن أسطوانة من الزجاج تملأ بالماء ويغمر العضو المراد اختياره كالساعد مثلا ويحكم سد فوهتها بمعجون يمنع تشرب الماء وبها ثقب متصل بأنبوبة رفيعة من المطاط في نهايتها "ترمسة" صغيرة من المطاط مسلطة على عقرب يتبع في حركته ضغط الهواء الذي يرد إلى "الترمسة"، فأقل زيادة في توارد الدم في العضو المتخير يظهر أثرها في كمية الماء التي تملأ الأسطوانة فيرتفع الماء قليلا وبذلك يضغط كمية الهواء التي بداخل الأنبوبة وبالتالي "الترمسة" فتنتفخ هذه الأخيرة قليلا فيتحرك العقرب. وقد وجد بالتجربة أن لكل انفعال تأثيرا خاصة في كمية الدم التي تواردت على ذلك العضو الموضوع تحت التجربة.

كذلك تظهر آثار الانفعالات النفسانية في حركة الساق الناشئة من الدق على وتر الركبة بتأثير الفعل المنعكس، بمعنى أن الزاوية التي تتكون من هذه الحركات وجدت تختلف درجتها باختلاف الحالات النفسية المتنوعة بمعنى أن لكل حالة منها زاوية خاصة بها. وقد استخدم لذلك جهاز خاص ذو مطرقة صغيرة تدق على ذلك الوتر دقات متساوية القوة في فترات منتظمة، ثم رصدت الحالات النفسية المختلفة حال إجراء هذه العملية، وعلى هذا القياس قيست معظم حركات الجسم وسكناته.

***

وقد وضع العلامة هوجومنستر برج أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة وأحد أعلام علم النفس العلمي الحديث، بعض تجارب قيمة في هذا الموضوع وذات فائدة عظمى أنقل بعضها لأهميتها:

التجربة الأولى: جاء بلوح مركب على أربع "بلي" يتحرك على سطح أملس، ليكون اللوح سهل الحركة ما أمكن، ثم كلف الطالب المراد اختباره بأن يضع يده على اللوح المذكور بعد أن حمل ذراعه بالقرب من المرفق بحامل متصل بحبل معلق في السقف لتكون يده مطلقة الحرية في التحرك إلى أي أنحاء كان، واستحضر عدة بطاقات مكتوب على كل منها حرف معين من الأحرف الهجائية واختار من بينها حرفا عرضه على الطالب وكلفه أن يحصر ذهنه فيه جيدا، وبعد ذلك وضع الحرف بين باقي الأحرف التي صفت في شبه نصف دائرة حول اللوح الذي عليه يد الطالب، فلاحظ أن يده تحركت في اتجاه مكان الحرف الذي كان حصر فيه ذهنه، ولما نقل الحرف المذكور من مكانه تحركت اليد ثانيا في اتجاه المكان الجديد لذلك الحرف، وهكذا كلما غير مكان الحرف تحركت يد الطالب نحو المكان على غير قصد منه، ومن ذلك علم الأستاذ منستربرج أن هناك صلة بين حركة اليد وبين الحرف الذي ارتبط به ذهن الطالب، وقال أنه لو جيء قياسا على ذلك بمجرم ينكر سلاحه الذي وجد بمحل الحادثة، ووضع هذا السلاح بين عدة أسلحة أخرى

في شبه نصف دائرة حول ذلك اللوح الذي يكلف الجاني وضع يده عليه وشوهدت بدء تتبع في اتجاهها مكان ذلك السلاح دون سواء لدل ذلك على أن للمتهم صلة بالسلاح المذكور، وقد أطلق على هذا الجهاز البسيط اسم أوتومانوجراف Auto,autograph أي كاتب الحركة الذاتية، لأنه ركب في طرف اللوح جهازا يسجل اتجاهات الحركة على قطعة من الورق أسفل اللوح.

التجربة الثانية: قد علمنا فيما مضى أن حالة الخوف ينشأ عنها تقلص في عضلات الجسم بالأخص عضلات أعضاء الحركة، ولذلك قد استخدم الدكتور منستربرج كرة من المطاط متصل بها أنبوبة رفيعة في نهايتها "ترمسة" صغيرة من المطاط أيضا والترمسة مسلطة على ذراع صغير متصل بذراع كبير يعظم الحركة مركب على لوح مقسم، بحيث أن أقل انقباض في الأصابع يحدث ضغطا على الكرة التي في قبضة اليد يظهر أثره مكبرا على اللوح بوساطة المؤشر، فإذا ذكر أمام المتهم اسم المجني عليه أو اسم متهم آخر كان شريكا له في الجريمة بين عشرين اسما مثلا لأشخاص آخرين ولوحظ أن المؤشر تحرك عند ذكر اسم المجني عليه أو الشريك دون باقي الأسماء أمكن أن نستنبط من ذلك وجود علاقة بين المتهم والشخص المسمى بالرغم من تجاهله إياه، وما ذلك إلا بسب كون سماعه هذا الاسم أحدث في نفسه انفعالات نتيجة الخوف، تتقلص عضلات اليد والأصابع فيضغط الشخص على غير

قصد منه وبدون انتباه الكرة التي في يده، فيضغط الهواء الذي فيها ويملأ الترمسة فتنفخ وبذلك يتحرك المؤشر.

التجربة الثالثة: لاحظ منستربرج أن لكرة العين نوعاً من الحركة قد يكون مستقلا عن إرادة الشخص وقصده فتتحرك في اتجاه معين وهو لا يعلم من أمرها شيئا، ولإثبات ذلك قد جهز بطاقات كتب على كل منها كلمة ذات تأثير خاص في نفس الطالب الذي ستجرى معه التجربة، وأخذ يعرض عليه الكلمات تباعا بعد أن اتفق معه مبدئيا على أمور معينة، وهي أن يقرأ الطالب الكلمة التي تعرض عليه ويتأملها ثم يغمض عينه ويدير وجهه إلى أحد الجانبين قليلا ثم يفتح عينيه في الحال، فلاحظ أنه في الكلمات الاعتيادية كانت كرتا العينين تتبعان في اتجاههما اتجاه الوجه أثناء تحوله من مكان الكلمة المعروضة، أما الكلمة ذات التأثير الخاص فإنه عند عرضها لاحظ أن كرتي العينين لا تزالان في اتجاه تلك الكلمة بالرغم من تحول الوجه عنها إلى جانب آخر كما تبين له ذلك من مشاهدة عيني الطالب حال فتحه جفنيه عقب إدارته وجهه، وقد كرر الأستاذ التجربة مرارا فكانت النتيجة واحدة في كل مرة، ومن ذلك أيقن أن للكلمة ذات الأهمية الخاصة تأثيرا خاصا في حركات العينين واجتذابها إلى مصدرها حتى ولو أدير الوجه إلى اتجاه آخر.

فلو كنا في المسائل الجنائية نعرض تباعا على المتهم الموضوع تحت الاختبار عدة أسلحة مختلفة من بينها السلاح الذي وجد في محل الحادث، وظهر لنا أثناء إجراء التجربة على الوجه السالف الذكر أن لهذا

السلاح وحده دون باقي الأسلحة التي عرضت على المتهم نفس الأثر، بمعنى أن كرتي عيني المتهم لم تتحولا عنه بالرغم من إدارته وجهه إلى اتجاه آخر، كان ذلك دليلا على وجود علاقة للمتهم بهذا السلاح رغما من إنكاره ملكيته وتجاهله إياه

التجربة الرابعة: وهي أن يؤتى بلوحين من النحاس كل منهما متصل بأحد طرفي سلك كهربائي متفرع من بطارية التيار جلفانومتر دقيق (وهو عبارة عن جهاز ذي إبرة مغناطيسية لقياس مقدار مقاومة التيار) ويضع المتهم إحدى يديه على لوح والأخرى على اللوح الآخر ثم تذكر له عدة أسماء شريكة في الجريمة أو اسم المقتول مثلا، فيشاهد أن إبرة (الجلفانومتر) تتحرك عند ذكر أحد هذين الاسمين دون غيرهما من الأسماء الأخرى، وهكذا كلما أعيدت التجربة كانت النتيجة ثابتة، ومن هذا يستدل على وجود ارتباط بين المتهم وبين الشخص المسمى. وكذلك الحال لو ذكر أمامه يدعي جهله أو أنه لا يهمه، ولوحظ تحرك عقرب المقياس فإن ذلك يدل على كذبه فيما يدعي.

وإني لأخال القارئ يساوره الشك والدهشة، ولكن على حسب المثل السائر (إذا ظهر السبب بطل العجب)، فتعليل ذلك ليس بالأمر العسير، فكلنا نعلم من أيام المدرسة أنه إذا أحرج أحد أثناء الامتحان بسؤال صعب أو وجهت إليه من الممتحن كلمة أو عبارة محرجة أخذ العرق يتصبب من جبينه، وما ذلك إلا لكون السؤال أو الكلمة نبهت غدد العرق إلى العمل، فيكثر إفرازها، كذلك الحال بالنسبة للمتهم الذي

ذكر أمامه اسم شريكه في الجريمة أو ذكرت أمامه أمور لها ارتباط بالواقعة أو بتفاصيلها أو طريقة ارتكابها، فإنه بالرغم من تظاهره بعدم المبالاة وتصنعه الجهل لما يلقى على سمعه، نرى عقرب (الجلفانومتر) ينحرف عن موضعه، لأن سماعه هذه الوقائع ينبه من المجموعة العصبية المراكز المتسلطة على غدد العرق حيث توجد في راحة اليدين بكثرة فيزيد إفرازها، وبذلك تزيد قوة مقاومة التيار الكهربائي فيتحرك العقرب

ومهما يكن التنبيه ضعيفا والزيادة في إفراز الغدد العرقية فإنها تكفي لأن يظهر أثرها في التيار الكهربائي حال مروره في جسم المتهم وقت الاختبار، كما قد يكون لإفراز الغدد الصماء بتأثير الانفعال النفسي شأن يذكر في تغيير مقاومة التيار الكهربائي حال مروره بالجسم.

ومن ذلك نرى كيف أن استخراج مكنون الفكر قد يكون بطرق هي في حد ذاتها على جانب كل البساطة غير أن مقاومة المتهم لنتائجها تكون مع ذلك خارجة عن طاقته البشرية وفوق متناول ما أوتي من عزم وإرادة وأنه لا يقوى على سترها مهما حاول إخفاءها.

فمثل هذه الوسائل لو هذبتها الأيدي العالمة العاملة وارتقت مع توالي الأزمان جريا على سنة الرقي الطبيعية لجميع الأشياء لابد أن تصبح يوما ما كأداة نقرأ بها أفكار غيرنا كما لو كنا نقرأ كتابا، ومع ذلك فإني أرى أن علم النفس العملي في الوقت الحاضر قد يؤدي لنا خدمات جليلة القدر عظيمة الفائدة في التحقيقات الجنائية.

ورب معترض على هذا يقول كيف يعتمد القاضي في حكمه بإدانة متهم على مجرد استنتاجات تافهة كظواهر الخوف والاضطراب التي تبدو على شخص متهم بجريمة، في حين أنه كما يمكن تعليل هذه بأنها نتيجة ارتكاب الجرم، يمكن كذلك تعليلها بأنها نتيجة ارتباك البريء ورهبته موقف الاتهام، وهو اعتراض طالما كنت أسمعه من الكثيرين. ولكن هذا خطأ محض في فهم المراد باستخدام علم النفس في التحقيق الجنائي.

فليس هذا هو الغرض المقصود من القول باستخدامه عمليا في وقتنا الحاضر، فإنه بالرغم من أن علم النفس الحديث مؤسس على قواعد علمية صحيحة نتيجة الاختبارات المتكررة والتجارب الطويلة وبالرغم من كونه قطع شوطا بعيدا في مضمار الرقي بجانب العلوم الطبيعية الأخرى، وبلغ شأوا عاليا في معارج التقدم والفلاح، فإنه لم يصل بنا بعد إلى الدرجة التي يمكننا معها استخدامه كفاية في ذاته لإقامة الدليل على متهم ليس عليه أي برهان آخر، ولكن ذلك لا يمنع من استخدامه في الوقت الحالي كمجرد وسيلة للوصول إلى الأدلة المعتبرة أمام المحاكم الآن، والتي تثبت الجريمة على المتهم بالبرهان المقبول قانونا أمام القضاء، ولست أرى أي محل للاعتراض على ذلك متى كان المتهم لديه الضمان الكافي بأن الذي ستقبله المحاكم في إثبات التهمة عليه إنما هو نفس الأدلة وأوجه الإثبات العادية التي اصطلح عليها القضاء، وأنه لم يكن الغرض من استخدام علم النفس إلا كواسطة

للوصول إلى تلك الإثباتات القانونية، وهناك فرق عظيم بين اعتباره كواسطة للوصول إلى غاية معينة وبين اعتباره هذه الغاية نفسها، وحسب القارئ الحادثة التالية أذكرها بهذه المناسبة على سبيل المثال لتكون بمثابة برهان حي ودليل عملي محسوس، وهي تتلخص في أنه في عام سنة ١٩١٤ وقع حادث شروع في قتل بإحدى القرى التابعة لمركز السنبلاوين، وملخصه أن شخصا من الأهالي أطلق عليه عيار ناري من يد مجهول خلال خروجه من القرية قاصدا غيظه وكان الوقت قبيل العشاء، وقد أطلق العيار من مزرعة على جانب الطريق، فأصيب المجني عليه في ساعده الأيسر، ولما كنت وكيلا لنيابة ذلك المركز وقتئذ فقد قمت للتحقيق، وفي خلاله حامت الشبهة حول شخص كان خطيبا لزوجة المجني عليه، ولكن والدها أبى أن يزوجها منه لسوء سلوكه، وزوَّجها من المجني عليه.

أخذت في البحث عن هذا المتهم فوجدته في مكان يبعد عن مكان الحادث بمسيرة ربع ساعة وهو يروي زراعة كان معينا كخفير عليها وكانت بيده عصا، وقد شهد اثنان من أهالي القرية بأنهما رأياه عقب سماعهما العيار يسير على شاطئ الترعة متجها نحو المزرعة التي وجد فيها، وكان مجدا في السير قليلا وبيده تلك العصا، ولما كان المتهم خفيرا خاصا لزراعة بعض الأعيان ومرخصا له بحمل السلاح فقد سئل بطبيعة الحال عن سلاحه، فادعى فقده من عشرين يوما، غير أن الشهود شهدوا بأنهم رأوه يحمله قبل الحادث بيوم واحد، ولكن نتيجة التحقيق

لم تتقدم بعد ذلك خطوة واحدة، في حين أن ما وصلت إليه من الأدلة لم يكن سوى شبهات لا تكفي لإدانة المتهم قانونا، غير أنها كونت عندي شبه عقيدة بأنه هو الفاعل، ولذلك حصرت اهتمامي في البحث عن السلاح، لأنه كان الطريق الوحيد المفتوح أمامي للبحث. وبعد قليل من التأمل لاح لي أن السلاح لم يخبأ في القرية وأن البحث عنه فيها عقيم ولا بد أنه يكون خارجها، لأن المتهم لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للعودة إليها بعد الحادث كما هو ظاهر من الوقائع المتقدمة، وبطبيعة الحال أرجأت التفتيش إلى الصباح، لأن البحث عن السلاح في وسط المزارع والغيطان ليلا من العبث، فوضعت الحرس الكافي حول تلك المزارع لكي لا يقربها أحد.

ولما طلع النهار خرجت لإجراء البحث والتفتيش وبصحبتي المتهم كعادتي عند كل تفتيش لعلي استفيد مما قد يبدو عليه من التأثيرات النفسية حال إجراء البحث، إذ كان يساعدني أحيانا في الوصول إلى غايتي، ولكني بمجرد أن خرجت من القرية وقفت برهة حائرا لأني وجدت أمامي ميدانا للتفتيش متسع الأرجاء مترامي الأطراف. وأنى لي أن أهتدي إلى المكان الذي خبأ المتهم سلاحه فيه، وأن التفتيش في الخلاء يتطلب عناءً شديدا ومجهودا عظيما قد يستغرق كل نهاري ولا أصل إلى نتيجة ما، وبينما أنا مسترسل في أفكاري وحيرتي، إذ تذكرت في الحال بعض تجارب العلامة منستربرج بشأن ضربات القلب وتأثير الانفعالات النفسانية فيها، فوضعت يدي على المتهم، وبينما كنت ممسكا بمعصمه

وضعت إبهامي خلسة على الشريان الكعبري (وهو الذي يجس منه الأطباء عادة) بعد أن تملكت موضع النبض منه جيدا وأصبحت دقات قلبه تحت إشرافي ومراقبتي ألقيت عليه عدة أسئلة متتابعة بشان محل إخفاء السلاح، وعددت الأمكنة التي يحتمل أن يكون أخفاه فيها، فذكرت له بعض المزارع ثم ساقيته الخاصة ثم الترعة والقناة فالمصرف وهكذا، فلاحظت أن النبض عند ذكر المصرف كان يشتد ويسرع كثيرا، وإذا ما حولت الكلام عنه إلى أماكن أخرى كان النبض يهدأ ويكاد يعود إلى حالته الطبيعية، وهكذا كلما ذكرت له المصرف يعود النبض فيقوى ويسرع، وكان أثر الانفعال محسوسا لدرجة أثارت دهشتي، وكانت دقات قلبه قوية واضحة حتى خيل إليَّ أني أسمعها من صدره، فترجح لدي أن المتهم ألقى سلاحه في ذلك المصرف ولكنه مصرف عميق متسع العرض ممتد الطول والبحث فيه شاق، فضلا عن أنه يستلزم مهارة في الغوص. ففي أي مكان منه ألقى المتهم سلاحه؟.. إن هذه لمعضلة ثانية. ولكن بعد أن قدحت زناد الفكر قليلا أمكنني تعيين ذلك المكان وتحديده بوجه التقريب، والفضل في هذا راجع إلى العصا التي كانت بيد المتهم، فهي التي أشارت لي ودلتني إلى موضعه. وتفسير ذلك أن للمتهم ساقية خاصة على مقربة من المصرف وقد اعتاد أن يترك عصاه فيها حينما كان يحمل بندقيته في أثناء الحراسة كما علمت ذلك اتفاقا من التحقيق، فالعصا كانت إذن عند ساقيته وقت ارتكابه الجريمة، ولم تكن معه بطبيعة الحال لأنه كان يحمل سلاحه، وبعد أن أطلق العيار فر هاربا نحو الساقية وتناول عصاه منها، كما هو ظاهر من وجودها معه عند

ضبطه. ولما كانت الساقية ملكه الخاص فهو لا يخاطر بإلقاء سلاحه فيها، وإنما أول شيء يتبادر الى ذهنه هو المصرف لقرية وصعوبة انتشال البندقية منه نظرا لعمقه، ولما كان الجاني شديد الرغبة عادة في التخلص من سلاحه بأسرع ما يمكن فإن أقرب مكان من المصرف إليه في الواقع اتجاه الساقية هو المكان يتبادر إلى الذهن أنه ألقى سلاحه فيه، حتى يصبح حرا طليقا من الدليل الخطير الذي يحمله بين يديه، وعلى أثر مرور هذه الخواطر ملت إلى مأمور المركز وعينت له المكان الذي يجب البحث فيه أولا، ولكن المتهم عند ما رأى الرجال المكلفين بهذا البحث متجهين نحو ذلك المكان بدت على وجهه دلائل الارتباك والحيرة وشحب لونه وجف لعابه، ولكي يداري اضطرابه وقتئذ ويظهر عدم اكتراثه بما يجري حوله أخذ يولي وجهه شطر موضع آخر ويحوله عن مكان البحث من المصرف، ولكن بالرغم من كونه أدار وجهه فإن كرتي عينيه كانتا لا تزالان في اتجاه نفس ذلك المكان، فازداد اعتقادي بوجود السلاح فيه وقوي أملي في الحصول عليه، وبالفعل لم تمض خمس دقائق في البحث حتى انتشلت البندقية من قاع المصرف.

إن هذه المشاهد البسيطة أثارت اهتمامي بعلم النفس التجاربي وزادتني إيمانا بجليل قدرته، ويقينا بجزيل نفعه حيث رأيتني أجني ثمار تجربة من أسهل التجارب بغير الاستعانة بأية آلة أو جهاز خاص، فلم أشأ أن أتركها تمر دون أن يكون لها أثر رسمي ثابت، فسجلتها في محضري الذي أخذت به محكمة الجنايات فيما بعد واعتمدت عليه في إدانة

المتهم، وكنت من ذلك الحين أجد لذة مضاعفة وشوقا عظيما في مطالعة ما كتبه علماء النفس في هذا الصدد وتطبيق ما أقف عليه من المعلومات في الحياة العلمية.

ومما تقدم نرى كيف كان البحث سلاح المتهم في ميدان مخيلته أسهل منالا وأقل عناء من البحث عنه في ميدان الطبيعة الفسيح المتعدد الأمكنة المتشعب الأرجاء.

فالتجارب النفسية قد تؤدي على تفاهتها وسهولة تناولها أجل الخدم للمحقق وأعظمها فائدة إذا عرف كيف يستخدمها وينتفع بها. ومن ذا الذي ينكر على علم النفس فضله على القانون وشدة حاجة رجال القضاء إليه؛ فهو للمحقق كنبراس يضئ له ظلمة الحوادث، فيستعين به في أشدها غموضا على استجلاء غامضها، كما أنه يكون له منه أداة ماضية يستخدمها في هتك ما أسدل على بعض الجرائم من الأستار والحجب الكثيفة، وبه يستعين القاضي على فهم عقلية كل متهم أو شاهد وفهم كثير من الأمور والمعضلات التي يشكل على الكثيرين منا فهمها أو تعليلها تعليلا صحيحا، فيكون له خير ضمان من الوقوع في الخطأ أو الزلل، وبه يستطيع أن يقدر العقاب المناسب لكل مجرم تقديرا صحيحا، ويختار له أكثر أنواع العقاب ملاءمة لعقليته، كما أن القاضي الفطن قد يستطيع به أن ينفذ إلى خاطر الشخص فإن كان شاهدا يتبين مواضع الصدق والكذب من شهادته، أو كان متهما يقرأ ما سطرته يد

الحوادث على صحيفة ضميره ويعلم منها أن كان مجرما حقا فيدينه ويتبين مبلغ تأصل الإجرام من نفسه أو بريئا فيقضي ببراءته.

وهو للمحامي أكبر عون على فهم حقيقة موقف موكله ودراسة عقليته بل وعقلية القضاة الذين يتولون محاكمته، فيسهل عليه التفاهم معهم ومخاطبتهم بالأساليب والعبارات التي يسهل إقناعهم بها والتي يستطيع بها أن يبث إلى أفهامهم كل ما يجول في خاطره من آراء، مع ما يعززها من الأدلة والبراهين، وأن يبسط لهم بأسلوب شائق سهل الفهم عليهم كل ما يحيط بموكله من الشئون والظروف والأسباب الموجبة لتخفيف العقاب عنه أو إعفائه منه أصالة.

فعلم النفس في الواقع علم جليل القدر يحتاج إليه القاضي والمحقق والمحامي والطبيب والمربي والمعلم والسياسي والاقتصادي والموسيقي والمصور والشاعر والممثل والروائي والمؤرخ والحفار والنقاش حتى التاجر والصانع، ويمكن إجمال مزاياه في أوجز عبارة "بأنه لغة العقول"، إذ به يمكنها أن تتخاطب وتتفاهم به ويمكننا أن ندرسها ونقرأ ما فيها ونقف منها على دخائلها وما تكنه من أسرار، ونشخص أدواءها وما بها من علل أو شذوذ، ونضع لها العلاج الذي يلائمها ويساعد على شفائها وتقويمها.

الفهرس